قرية السعادة

اسم الرواية: **قرية السعادة**

اسم المؤلف: **صلاح عبد الله الهبوب**

تدقيق لغوي: **بسمة محمد**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٦٧**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٤٨**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

صلاح عبد الله الهبوب

قرية السعادة

إبهار
للنشر و التوزيع

المقدمة

سأسرد هنا قصة غريبة، والغرابة تكمن في استمراريتها، فمعظم القصص تنتهي، هذا ما نعرفه منذ وجودنا، فلكل شيء نهاية، لكن لا تفركم العناوين، فليس هناك شيء حتمي، وهذا أغرب ما ستجدونه في هذه القصة، فالقصة تمخضتها الغرابة، بل هي الغرابة نفسها إذ أمكننا أن نقول.

ففي زمن لا يعرف أحد زمن وجوده، كانت هناك قرية صغيرة فوق الجبال الشاهقة، تلامس بيوتها السحب، وتعانق مزارعها الرياح بشكل شبه دائم.

قرية تزهر فيها الورود في الصيف، وترتعد فيها الأشجار في الشتاء، قرية حوت كل شيء، والذي يعني أهم شيء، ولنعتبر كلمة (كل شيء) مجازًا للتعبير، فهي مرادف لمعنى السعادة في لغة أهل هذه القرية.

(فكل شيء) تعني السعادة، والسعادة تعني (كل شيء)

الحب، الأخوة، التعايش، الصداقة، الرقص، الغناء، الضحك، الملابس والبيوت.

فكل شيء هناك نُسج من السعادة.

كان يسكن في بيوتها المشرفة، بمهابة على المدرجات المتلونة بلون النباتات الخضراء القرمزية الجميلة للأشجار المختلفة، التي تتقطر منها لآلاء الندى معبرة هي أيضًا عن السعادة والرضى.

كانت تلك المدرجات تبدو كدرجات نحتت برشاقة من الأعلى إلى الأسفل، يختلط فيها مع المشهد الأخضر البهي والمنعش، ألوان أخرى لثمار غنية ومتنوعة ذات عصارة سكرية المذاق، والتي لا يمكن أن يجد البشر لها مثيلًا في مكان آخر من العالم، هذا ما قيل وما زال يقال بحسرة.

كان يسكن تلك البيوت أناس سعداء، رجال ونساء، فتيان وفتيات، كان لخلقتهم الحظ الوافر من جمال المكان، الذي انعكس بهاءً على وجوههم المشرقة، وصبغ شعورهم الطويلة والناعمة بلون أسود غامق.

كانوا يستيقظون مبكرًا، يلقون تحيات الصباح على بعضهم البعض، ثم يذهب كل منهم لعمله، وهو غالبًا زراعة الأرض، رعي المواشي، جمع الحطب، نسج الثياب، تعليم الأطفال، وكل الأمور التي تقتضيها استمرارية الحياة.

كان يسكن في القرية أربع من العوائل الكبيرة، تفرع منها مع مرور الزمن عدد كبير من الأسر، كان أكبرها عائلة الهوازن، وتلك التسمية أتت من جدهم هوزن، الذي كان أول من استطاع اجتياز الجبال الكثيرة، والمصاعب الخطيرة ليصل إلى هناك، فكان هو أول من استقر في ذلك المكان، وبناء بيت توسع مع مرور الزمن، وتكاثر الأبناء والأحفاد.

يُقال أنه كان يستطيع بيديه شق الصخور الكبيرة إلى نصفين من شدة قوته، والدليل الذي يثبت ذلك هو الشق الموجود على الصخرة الغربية، التي يرتكز عليها بيته، المطل في أقصى الغرب على منحدر القرية الغربي.

يُقال أن ذلك الشق وُجد بفعل ضربة واحدة من يديه القويتين، وكان جميع أفراد العوائل الأربعة فيما مضى يصدقون ذلك دون نقاش.

لكن في هذا الوقت صار الكثير يشككون بذلك من منظور المعقول، وانقسم الناس في ذلك إلى طرفين: طرف يقول أن ذلك غير ممكن لأن العقل لا يقبله، و طرف آخر يقول أن ذلك من الأشياء التي لا تقبل الجدال أساسًا، وانقسم الطرفان إلى فرق وأطيف...

طيف يقول أن هذا الأمر ممكن الحدوث لأن البشر كانوا في تلك الفترة أقوياء، لكن يجوز الطعن في حقيقة ذلك، إذا أثبت الطرف الآخر بالأدلة

القطعية أن إحداث ذلك الشق مُستحيل من الناحية المنطقية وضمن السياق التاريخي للتطور البشري...

وكان هؤلاء طيف وفد الطرف الثاني، الذي رأى الاعتدال والوسطية وإعمال العقل في هذه القضية قدر المُستطاع.

على العموم، ليس هناك مجال هنا لشرح هذه القضية العصية، التي كثرت فيها الأقوال وكتبت عنها المجلدات، ولم يصل أي منها إلى تفسير منطقي يُثبت أو ينفي أن ذلك الشق الصخري وجد بفعل ضربة جد الهوازن القوية أم لا!!

يلي استقرار الهوازن بفترة قصيرة أو وجيزة وصول العائلة الثانية، وهي عائلة النواجد، والاسم أتى هذه المرة من الأم الكبيرة والقوية (ناجدة)، التي وصلت إلى القرية مع ابنها وزوجته، اللذان كانا حديثا عهد الزواج.

كانت ناجدة امرأة قوية، استطاعت اجتياز تلك الجبال والتضاريس الصعبة للوصل إلى القرية، هربًا من شيء كانت تخافه جدًا، لم يعرف أحد إلى الآن ماهيته؟!!

لأنها لم تكن تتفوه بشيء مفهوم كلما سُئلت عن ذلك، كانت تتأتأ ببضع الكلمات غير المفهومة ثم تصمت، فآثر الجميع عدم إزعاجها.

الغريب أن ولدها وزوجته لم يكونا يعرفان الأمر الذي كانت الأم ناجدة تخاف منه بالضبط، فلم يكن هناك ما يدعو للخوف أو الهرب في مسكنهم السابق، لكن كان لا بد للابن المطيع من اتباع حدس أمه، التي كانت ستهرب لوحدها حتى وإن لم يرافقها.

لكنهما عندما وصلا إلى القرية وجدا أن خوفها كان له ثمار طيبة، فقد وصلا إلى مكان أشبه بالجنة مقارنة بالمكان الذي كانوا يعيشون فيه بالسابق، فتم بناء بيت عائلة النواجد، الذي اتفق أن يكون في الطرف الشرقي للقرية...

أحدثت مسألة الشيء، الذي كانت الأم ناجدة تخاف منه، جدلًا واسعًا فيما بعد، لا يقل في حدته عن الجدل الذي أحدثة شق جد الهوازن في تلك الصخرة....

لا مجال للخوض فيه، لكن الرأي الذي يجب ذكره لغرابته، والذي آمنت به جماعة لا تزال موجودة، هو أن ذلك الخوف الذي دفع الأم للهجرة، كان استدعاءً من أشباح تسكن ذلك المكان ولا زالت تسكنه إلى الآن

هذه الفكرة ظلت ولا تزال تبعث الخوف في قلوب الأطفال مُنذ أن قيلت، لا شك أن رابطة قوية وبريئة جمعت بين عائلتي الهوازن والنواجد، فقد ساعد الهوازن النواجد في بناء البيت، الذي أصبح يُعرف فيما بعد (ببيت النواجد)، والدليل على ذلك أن البيتين القديمين للعائلتين متطابقان في الشكل واللون والبنية وعدد الغرف...حتى أن نكتة طريفة، نشأت منذ زمن طويل عن هذا الأمر تقول:

أن اثنين من رجال العائلتين التي كانت تربط بينهما علاقة صداقة عميقة ظلا يقطفان الثمار إلى أن حل المساء على غير العادة لانسجامهما في الحديث، والعمل، وعندما قررا أن يعودا إلى المنزل استيقظ كل منهما، وهو في بيت العائلة الأخرى.

كانت هذه النكتة قديمًا، تثير ضحك رجال القبيلتين حتى البكاء، لكنها الآن لم تعد حتى ترسم البسمة إن قالها أحدهم، بل إنها تكاد تكون مندثرة لا نجدها إلا في الكتب...ومن المرجح أيضًا كما قيل، أن الأم ناجدة أرضعت أحد أحفاد جد الهوازن (هوزن)، الذي رفض الرضاعة من أمه ومن كل نساء عائلة الهوازن، وأنها أنقذته من الموت المحتوم بوجودها، مما وطد العلاقة بين العائلتين كثيرًا....

مرت سنوات تُقدر بالأربعين إلى أن أتت العائلة الثالثة، وهي عائلة (الأشاعر)، لم تُسمى تلك العائلة بذلك الاسم لسبب معين، ولم يعرف أحد إلى الآن من سماهم بهذا الاسم، فقد وصلوا القرية وهم يكنون بكنية (الأشاعر)، ومن المحتمل أن الاسم يعود إلى جد لهم، كان اسمه أشعر أو غير ذلك، فالأمر غير معروف إلى الآن كما ذكرت سابقًا.....

وصلت ثلاث أسر جائعة ومنهكة في صباح أحد الأيام، وهم أفراد عائلة الأشاعر، كانت الأم ناجدة في ذلك الحين قد ماتت واندثر مع موتها خوفها الغريب، وكان جد الهوازن قد شاب وزاد عمره عن المائة، ومن المؤكد أنه في ذلك السن لم يكن ليستطيع شق الأحجار، ذلك الشيء الوحيد الذي اجمعت عليه جميع الطوائف بما يخص جد الهوازن، استقبل النواجد و الهوازن، وقد كثر عددهم مع مرور السنوات، أقرانهم الجدد، فأحسنوا استقبالهم وإطعامهم وألبسوهم واستضافوهم في بيوتهم، والحق الذي قيل، والذي يجب أن يُقال، أن أفراد عائلة الأشاعر كانوا طيبين، متسامحين ومحبين بطبيعتهم، فشعر النواجد والهوزان بالألفة معهم وأحبوهم....بعد مرور ثلاثة أيام من قدومهم، قرر

الأشاعر بناء بيتهم الخاص، والذي اتُفق أن يكون في وسط القرية أقرب إلى جهة بيت عائلة الهوازن، الذين قبلوا بسعادة جوهر الأشاعر، وساعدوهم في بناء بيتهم، لكن هذه المرة لم يكونوا هم المسؤولون عن كيفية البناء، فقد تولى الأشاعر مهمة بناء بيتهم الخاص وبطريقتهم، فقد عرف عنهم حبهم للألوان وهم من أتوا بفكرة التلوين إلى القرية.

كان النواجد والهوازن يرتدون ثيابًا بيضاءً، وكانت بيوتهم تحمل اللون الأبيض، لم يكن كل من النواجد و الهوازن يعرفون كيفية صناعة الأصباغ أو ما هي الأصباغ في الأساس، أما الأشاعر فقد كانوا ماهرين في صناعة الأصباغ ذات الألوان المختلفة والزاهية، التي زينوا بها بيتهم الجديد، فأصبح مظهره مزيجًا من الألوان المختلفة الأزرق والأصفر، والأحمر، والبرتقالي، وجميع الألوان البهية.....

أضاف مظهر بيت الأشاعر الكثير من الجمال إلى القرية، فالحقيقة أنهم كانوا يراعون تناسق الألوان، بل كانوا يبرعون في جعلها متناسقة بشكل مبهج، بحيث كانوا يقدسون الجمال فترى ذلك التناسق الجمالي، الذي يكون مبهمًا أحيانًا، في كل ما يفعلونه، لم يؤدي اختلافهم وبراعتهم عن الهوازن والنواجد إلى التنافر، بل العكس هو ما حصل، أحب النواجد والهوازن مهارة أقرانهم الجدد، وأرادوا ان يتعلموها منهم.

ومنذ ذلك الحين أصبحت القرية كلها مفعمة بالألوان البهية المتناغمة مع طبيعة المكان بشكل عجيب، وأصبح الجميع يبرعون في صناعة ومزج الألوان ويتنافسون في ذلك...فأصبحت ثياب كل عائلة تحمل طابعها الخاص من الألوان التي تميزها عن الأخرى، فيمكنك أن تعرف

إلى أي قبيلة ينتمي كل واحد منهم من الألوان التي تميز ملابسه، وذلك بالمناسبة ما جعل الكثير الآن يشككون في النكتة التي ذكرتها آنفًا عن بيتي الهوازن، والنواجد المتطابقين فقد أثارت مسألة الألوان تلك الشك في صحة تلك النكتة، وكما العادة انقسمت الآراء والبراهين، فالبعض طعن في صحة حدوث تلك النكتة، وبرهنوا على ذلك:

بأن ألوان وأزياء النواجد والهوازن في تلك الفترة كانت مختلفة، فلا يمكن أن يحدث دخول أحدهم بيت الآخر

أما البعض الآخر فقالوا:

إن ذلك ممكن الحدوث لأن الوقت كان ليلًا.

فرد عليهم البعض الأول بأن:

ضوء القمر والنجوم سيجعل بالتأكيد كلًا منهما قادرًا على تمييز بيته.

فرد البعض الثاني:

بإمكانية خفوت الضوء في ذلك اليوم.

وهنا ظلت المسألة عالقة إلى الآن والجدال واسع حولها، ولذلك لم تعد تلك النكتة مضحكة بل مثارًا للجدال وحتى للشجار، فلم يعد الكثيرون يرغبون بالتحدث عنها تفاديًا للمشاكل مما أدى إلى اندثارها ونسيانها.

العائلة الرابعة والأخيرة التي أتت كان اسمها عائلة الأرامد وقد كانوا رجالًا أقوياءً ونساءً رقيقات، كان ذلك يحمل تناقضًا جميلًا، تناقضًا طبيعيًا جميلًا١١...فقد كانت النساء رقيقات جميلات كان يقال:

"أنهن ولدن من ماء الجنة"

هذا ما ابتدعه أفراد عائلة الهوازن، الذين لم يكونوا أقل قوة من رجال عائلة الأرامد، ولم تكن بقية النساء في العوائل الأخرى أقل جمالًا من نساء الأرامد، بل كان هناك من هن أكثر جمالًا في الشكل من نساء الأرامد، لكن ما جعل من نساء الأرامد ساحرات هو شيء غريب، يُقال الآن أنه خليط من السحر والحب، الذي وضعه الكاهن الذي بارك زواج جد الأرامد، (أرمد)، فكما الهوازن كان اسم عائلتهم يعود إلى جدهم الأكبر، هذا ما يُقال الآن عن فتنة جمال نساء الأرامد أنه بسبب سحر كاهن قديم...لم يستطع أحد أن يثبت ذلك إلى الآن، لكن الغرابة هنا أيضًا، أن أحدًا لم يختلف في ذلك، و لم تنقسم الآراء والطوائف، فقد كان خيال أطياف تلك النساء الجميلات يجعل الجميع يصدق ذلك الآن، لأنهم يفتقدون الجمال ليس جمال النساء، بل الجمال المثالي والمكتمل، فكان لا بد من وجود سبب مقنع، وإلا لما كان لجمال نساء الأرامد المثالي والكامل الذي يتصوره الناس وجودًا أو مبررًا، هذا ما جعل الناس لا يختلفون في هذه المسألة دون غيرها من المسائل، هذا ما أظنه، ويمكن أن يكون ظني خاطئًا.....

لقد أطلت الكلام عن جمال نساء الأرامد، ذلك لكوني فكرت كثيرًا في هذا الأمر من قبل "غرابة عدم اختلاف الناس في ذلك الأمر"، فقد كان غريبًا حقًا واستثنائيًا، فبعكس الكثير من القضايا التي تم الاختلاف فيها، كان يُمكن أن يكون ذلك الجمال الأسطوري من نسج خيال الناس على مر العصور، فكل ما وصل إلينا كان جملة واحدة، أنهم كن جميلات... "جميلات ولدن من ماء الجنة، لجمالهن سحر خاص وفتان"

هذا ما قيل بالتحديد

وصلت عائلة الأرامد إلى القرية، بعد حوالي سنة من قدوم الأشاعر، كانوا يبحثون عن مكان ليستقروا فيه في هذه المناطق الجبلية، كانوا من قبل من البدو الرحل في الصحراء، لكنهم قرروا التوقف عن الترحل بسبب انعدام المراعي في الصحراء تقريبًا بعد موجة قاحلة اجتاحت مراعيهم، امتدت لفترة طويلة من الزمن مات فيها الكثير من مواشيهم، فاتخذوا هذ القرار، الذهاب إلى الجبال بدلًا من الصحراء، لذلك كان الرجال أقوياءً وأشداءً وصبورين، وكانت النساء جميلات فاتنات محبوبات، لقد انعكست قساوة الصحراء وجمالها عليهم في آن واحد، كان وصولهم إلى القرية سهلًا كما لم يكن على غيرهم، وسبب هذا يمكن أن يفهم من السياق، كان أكثر من فرح بقدوم الأرامد، هم الأشاعر كانوا ودودين بطبعهم، لا يعني ذلك أن النواجد والهوازن لم يحبوا ذلك، هم أيضًا أحبوهم ولم تقل حفاوة استقبالهم للزوار الجدد عن الأشاعر...

لكن الأشاعر كانوا أكثر من احتفوا بهم، وصل ذلك إلى المبالغة لحد ما...كأنما الذي وصل هو نبي منتظر أو شيء من هذا القبيل...كانت أصوات الأهازيج والفرحة تملأ القرية في ذلك اليوم، ولا يمكن لوم الأشاعر على ذلك فقد كانت تلك هي طبيعتهم، التي تضفي البهجة لكل شيء...

كان منظر القرية الجميل المنسجم بشكل غريب مع الطبيعة، والتعامل اللطيف الصادق الذي تم استقبالهم به من أهل القرية، قد جعل أفراد عائلة الأرامد يتخذون القرار بالاستقرار في القرية.

عرض الأشاعر والهوازن والنواجد بناء بيت لعائلة الأرامد، فقبل الأرامد العرض بكل تواضع، قفد كانوا لا يستطيعون بناء البيوت ولم يسكنوا البيوت من قبل، كانوا بدوًا رحل يسكنون في الخيام فيما مضى...

شعر الأشاعر بسعادة لذلك وتحمس الهوازن والنواجد لفعل ذلك أيضًا، كونهم لم يبنوا بيتًا كاملًا منذ فترة طويلة...فاختيرت البقعة التي سيُبنى فيها البيت...الأصح أنه لم يتم اختيارها، فقد كانت البقعة الأخيرة التي يمكن بناء بيت فيها على الجبل المطل على الحقول الخضراء، بقعة الأرض القريبة إلى شرق القرية إلى المكان الذي يقع فيه بيت عائلة النواجد .....

تعاون الجميع في بناء البيت، جميع العوائل الأربعة، فكان البيت جميلًا ومميزًا وخليطًا من الألوان والإبداع الهندسي المقترن بصدق مع الحب (حب العطاء) الذي ستتميز به هذه القرية لقرون...

لم يُثِر جمال البيت وتميزه عن البيوت الأخرى حسد بقية العوائل، وهذا أمر أغرب من الغرابة، إذا نُظر إليه من منظور الناس الآن، بل إن الكتب كانت تقرن علامة الاستفهام كلما ذكر هذا الأمر، فقد كان البيت أوسع وأجمل وأطول وتُزينه الأحجار الكريمة المختلفة، كان مختلفًا عن البيوت الأصلية للعوائل الأخرى، كقصر بُني لملك عظيم

كانت الأسئلة تتوالى في الكتب، كيف يمكن حدوث هذا؟ كان لكُتاب هذه الكتب بعض الحق في البحث عن تفسير لهذه المسألة، إذا تمت مقارنة ذلك بالأيام التي كتبوا فيها كتبهم...

ونشأ هنا تفسير يبدو مقنعًا لبعض الطوائف، كان لا بد من وجود سبب، فشيء مثل هذا لا يمكن أن يكون معقولًا دون سبب مقنع، يقول ذلك التفسير:

أن تلك الأحجار الكريمة التي زُين بها القصر، جاء الأرامد بها معهم، عند قدومهم إلى القرية وقاموا بإعطاء البعض منها للنواجد والهوازن والأشاعر مُقابل بناء البيت الجميل لعائلة.

ولكن الحجج التي دحضت صحة هذا التفسير، والذي أتت به الطوائف الأخرى، كانت سليمة، فأعاد ذلك علامات الاستفهام؟!! أمام هذه المسألة مرة أخرى منها:

أن العوائل الثلاث لم يكونوا يحتاجون للأحجار الكريمة، فلم يكن هناك شيء يباع ويشترى، وهذا ما يجعل من تلك الأحجار، المزعوم أن الأرامد أتوا بها، بلا قيمة.

ثانيًا، أن تلك الأحجار الكريمة كانت موجودة فعلًا بكثرة في جبال القرية، وكانت النساء تتزين بها قبل قدوم الأرامد، وكانت متاحة للجميع، وهذه الحجة القوية تجعل الأحجار، حتى لو أتى بها الأرامد، بدون قيمة أيضًا، لأنها موجودة أساسًا وليست نادرة، وهذا ما جعل جزءًا من هذه الطوائف التي أتت بهذا التفسير تتراجع عنه، لكن البقية بقوا على ما جاءوا به، رغم قوة الحجج، لسبب غير معروف، يمكن

على سبيل العناد أو الكرامة، أما بالنسبة لذكري لهذه المسألة وغيرها، ذلك لأنها لا تخلو من الغرابة.

فأنا لا أفهم سبب علامة الاستفهام أبدًا؟ فليس هناك ما يدعو إليها...إذا نُظر للأمر في سياقه التاريخي...عندما استقرت عائلة الأرامد في بيتها، وانقطعت العوائل الأربع عن العالم، لم يزرها أحد لفترة طويلة تقدر بمائتي سنة أو اكثر، ولم يعرف أحد السبب المؤكد، لكن الأرجح أن هناك حدث قطع الطرق والسبل إلى القرية، والأرجح المؤكد أن زلزالًا حدث دمر الطريق الجبلي، وقد كنت أنا من استنتج ذلك، لأني قرأت عن حدوث اهتزاز أرضي في أحد الكتُب، في زمن قريب من فترة انقطاع القرية...كان ذلك ما استنتجته أنا بنفسي.

أما الناس قد ملوا الجدال عن ذلك الأمر الآن، ومن الغريب أن الناس لم ينقسموا فيه إلا إلى قسمين يقولون برأيين فقط...

رأي رأى أن سبب عدم قدوم أحد لتلك الفترة الطويلة، هو عقد أبرمته العوائل الأربعة مع الجن الحراس، أما القسم الآخر يقول أن العقد أُبرم مع الملائكة الحراس، والاختلاف بدأ بين هذين الأمرين بشكل أساسي، ولم يفكر أحد خارج عن هذا النطاق، فكان الجدال في معظم الأحيان ليس لإثبات الحقيقة لكن لإثبات من هو على حق، وهذا في جميع المسائل التي ذكرت من قبل...

من المؤكد أن هذه الفترة هي التي حوت (كل شيء) السعادة بمعنى آخر فقد عاشت العوائل منسجمة كما ذكرت في بداية القصة، والذي سأذكر غرابتها الظريفة في الأحداث القادمة.

ما هذه إلا مقدمة وكان ذكري لاختلاف الآراء كثيرًا لتدركوا كم هي غريبة هذه القصة، رغم أن كل شيء معروف عن قرية السعادة، وسجل بأقلام كتّاب القرية أثناء فترة (كل شيء) بكل وضوح، إلا أن الناس عندما كان كل شيء واضحًا بدأوا بوضع الآراء واختلفوا وسجلوا اختلافاتهم على مدى السنين إلى الآن، ربما يكون السبب في ذلك حنينهم الغريب للماضي، الماضي الذي كان فيه (كل شيء)...

كانوا كمن ملك بيضة وانكسرت عليه على غفلة، فراح يبكي متحسرًا على انكسارها مفندًا الأسباب المختلفة التي أدت إلى انكسارها، ضاربًا ومعذبًا نفسه، منتظرًا أن ذلك سيعيد البيضة إلى ما كانت عليه، هناك ينعدم الأمل لأنها لم ولن تعود إلى ما كانت عليه.

فيعيش على ذكريات وجودها بيأس وغضب...يتخيلها أمامه كما كانت قبل أن تنكسر بنفس الشكل والحالة، ممعنًا في ضرب نفسه كلما تخيلها قسم منه يقول:

أنه لو لم يحملها بتلك الطريقة لما انكسرت، وهذا الجزء ينقسم إلى آراء وأجزاء أخرى، والأغرب من ذلك أن جزءًا منها من شدة يائسه ينكر أنها كانت موجودة أصلًا...والأكثر غرابة بشكل مضحك، أنه نسي أن الدجاجة والديك الذين أنجبا البيضة، لا يزالان في الحضيرة، ويمكن أن يُنجبا واحدة غيرها ....

يمكن أن يكون المثل عصي عن الفهم أكثر من القصة نفسها، لكني سأحكي القصة كاملة وأنتم اضربوا لها ما شئتم من الأمثال.

الدليل على أن القصة مستمرة ولم تنتهي، هو أنني أكتبها وأنا في نفس القرية، العوائل الأربعة، وكل هذا يحدث حولي، ولن أذكر من أي عائلة أنا، كي لا يثير ذلك شيء من العنصرية أو التهكم...أنا متأكد أنني حتى لو ذكرت اسم العائلة التي ينتمي إليها كاتب قصتهم الغريبة من العوائل الأربعة، أنهم سوف يختلفون على هوية كاتبها، ولأي فرع هو ينتمي في العائلة نفسها، وهناك احتمال أن تنقسم آراءهم، فيما إن كانت قصتهم غريبة فعلًا أم ليست غريبة!!

من الأفضل لي أن أتركهم يختلفون على هوية العائلة التي ينتمي إليها كاتب قصتهم الغريبة، من أن يختلفوا على هوية من كتبها...

****

الجزء الأول

(١)

في زمن الحفيد السابع لجد الهوازن رعد، كانت العوائل الأربع قد استقرت في القرية، وكانت السعادة في القرية قد بلغت أوجها، فأصبح (كل شيء) جزءًا من الحياة على القرية، لم يكن أحد يشعر بأن العالم يوشك على النهاية، أو أن التعاسة ستجد لها موطأ قدم بين جنبات القرية في يوم من الأيام....

رعد كان يشبه جده إلى حد ما، لقد حقق أمنيته بالزواج من براقش إحدى فتيات عائلة الأرامد الجميلات، بعد أن عاشا قصة حب بريئة لفترة طويلة، منذ أن كانا صغارًا، يجريان في الحقول الواسعة لثمار الرمان هم وأطفال القرية الآخرين...

كتب الشعراء الكثير عن تلك القصة، وسطروا لها الملاحم البطولية، فجعلوا من رعد العاشق الذي قاتل جيوشًا للظفر بحب تلك الفتاة الجميلة براقش التي تعيش بعيدًا في قلعة الأرامد المحصنة التي كان يحكمها رجل قوي، لم يرغب في أن يكون رعد زوجًا لبنته البكر، لكونه ابنًا لفلاح فقير من عائلة الهوازن...

هام الكثير بتلك القصة وتلك الأساطير والملاحم، فأصبح ذكرها مقرونًا بالمناسبات، لما كانت تثيره من مشاعر عميقة وعواطف جياشة،

ولم يرغب أحد في معرفة القصة الحقيقية التي تختبئ خلف أسوار الخيال الجامح، والمشاعر المفرطة.

لا يعدوا ذلك إلا تزيفًا للتاريخ، فالملاحم البطولية التي كُتبت عن الحب الذي جمع بين رعد وبراقش، لم تكن إلا من نسج خيال الشعراء على مدى العصور المتلاحقة، ولم تكتب إلا بعد موتهما بقرون عديدة، كما يعرف مُعظم المؤرخين، المتقدمين منهم والمتأخرين.

وإن رجح عاقل حقيقة تلك الملاحم، فهو يُنكر حقيقة ما كُتب عن الحياة في قرية السعادة، وما كان يوليه أفراد القرية بعوائلها الأربع للحب من تقديس وتعظيم، والقصة كانت على هذا النحو:

الحب في القرية كان ينبع من براءة الطفولة، ذلك الحب الدافئ والحقيقي الذي لا يجربه المرء إلا مرة واحدة في عمره، كان الفتيان والفتيات يتزوجون من اللحظة التي يصبحون فيها شبابًا، أي بسن الخامس عشر أو السادس عشر أو السابع عشر، إذا تأخر الشاب في إثبات أهليته للزواج من الفتاة التي اختارته واختارها .....

لم يكن الزواج يتطلب الكثير من الأمور كما هو الآن، والتي تكون في معظمها مادية أو كلها تقريبًا، لكنه رغم ذلك، كان الزواج في قرية السعادة يتطلب من الفتى الشاب المتقدم للفتاة تنفيذ شرطين كي يثبت استحقاقه للزواج من الفتاة التي اختارها واختارته وهما:

أن يقدم الشاب للفتاة التي سيتزوجها أجمل زهرة في ذلك الموسم، ومن كان يقرر أنها جميلة أو لا، هي الفتاة نفسها، وذلك ما كان يجعل من هذا الشرط سهلًا على معظم الفتيان، فإن كانت الفتاة تُحبك فعلًا فهي

ستقبل تلك الوردة، لأنها ستراها جميلة في كل الأحوال، فالحب يجعل الشيء في نظر المحب جميلًا كيفما كان، مع ذلك كانت الوردة البيضاء التي قدمها رعد إلى براقش جميلة، بل كانت الأجمل في القرية منذ وضع هذا الشرط...

أما الشرط الثاني، فقد كان أن يقوم الشاب باصطياد غزال من البراري، ويقدم قرونه إلى عائلة الفتاة التي يُريد الزواج منها، كدليل على القوة والاستحقاق...هذا الشرط كان يكتنفه بعض من الصعوبة، وكان بعض الشباب يفشلون في تحقيقه من المرة الأولى، لأن اصطياد غزال بري من البراري، يتطلب أن يكون الشاب قويًا وسريعًا وماهرًا في رمي السهام...

أما رعد فقد كان فعلًا شابًا قويًا وماهرًا في استخدام القوس...فاصطاد الغزال بنصف المدة التي استطاع أقرانه اصطياد الغزال فيها، يومان فقط، وكان قد قدم قرون الغزال أمام والدي براقش التي كانت أمها تنتمي لعائلة الأشاعر، وأبوها لعائلة الأرامد.

بورك ذلك الزواج من جميع العوائل الأربعة كما في كل موسم حصاد...تم زواج الفتيان من الفتيات اللاتي اختاروهن في عرس كبير، تصدح فيه الأهازيج والأغاني وتمتزج الألوان مع الطبيعة، ويعبق الهواء بعطور الزهور المنعشة، هذا كله كان جزءًا من لوحة السعادة التي يظهر فيها الفتيان والفتيات المتزوجون كالأقمار والأمطار والأنهار، التي كانا المحبة والعطاء الشيء الذي يجمع بين أضداد معانيها.

كان نبض قلوبهم هو نفسه نبض الحياة والحب، كان رعد وبراقش يتوسطان جمع العرسان، بأبهى اكتمال للتشبهيه بما يحتويه من المعاني العميقة، ضوء القمر والليل ،المطر والشجر، الأنهار والبحار.....

من نسلهما براقش أجمل فتاة في القرية، ورعد أقوى رجل في القرية، كان سيولد بعد أجيال متعددة معنى آخر ينافي السعادة بقصد أو بغير قصد، رجل سيغير شعور مصير القرية إلى الأبد.....

كأنما وجوده يثبت حقيقة الحكمة التي عُرفت على مر الزمان، وكان يعرفها أهل القرية أنفسهم:

((لا يمكن أن يكون الجمال مكتملًا، كما لا يمكن أن توجد السعادة دون عناء، ولا العناء دون أمل، ولا أمل دون حلم، ولا حلم دون حب، كما أن النهار لا يمكن أن يدوم دون ليل، والليل دون فجر وضياء، والشتاء لا يمكن أن يستمر دون خريف، والخريف يجب أن يتبعه الربيع))

تلك هي الحكمة الفاصلة التي يمكن أن تُلخص في كلمة واحدة وهي (الزمن)..

****

(٢)

اندثرت القرية في رمال الزمن، واندثرت أخبارها مع انفصالها مع الزمن عن أهل السفوح والصحاري والوديان...وأصبحت مجرد أسطورة يحلم الجميع بوجودها.

(إنها قرية السعادة التي تقبع خلف الجبال).

كانت جدة العطار عمران تحكي له عنها مُنذ كان طفلًا، كما تحكي أي جدة لحفيدها عن أي أسطورة قديمة، يتناقلها الناس أبًا عن جد...لم تكن تدري الجدة أن حفيدها سيصدق تلك الأسطورة، بل أن الوصول إلى قرية السعادة سيقدح شرارة الحلم في عقله.

"حلم حل أحجية قرية السعادة التي لا يُعرف مكانها، ولا يُعرف إن كان لها مكان في الأصل أم أن مكانها لا يعدوا أن يكون في أدمغة الناس الحالمين"

تلك القرية التي يعيش فيها الإنسان بسعادة غامرة، حيث الزهور الجميلة، والثمار الغريبة ذات العصارة السكرية، والنساء الجميلات اللاتي ولدن من ماء الجنة.

ظل ذلك الحلم في ذهن عمران يكبر معه، متخفيًا خلف مهنة صناعة العطور، التي تعلمها بجد من أحد المعلمين المهرة، وأصبح هو الآخر ماهرًا فيها، كان حلم إيجاد قرية السعادة قابعًا في أعماق عمران، معلقًا ببصيص أمل خافت، نور السعادة الذي يشدوا إليها كل إنسان...

وبما أنه كان عطارًا يجمع الأزهار في الجبال ليصنع منها عطوره، كان الأمل في إيجادها يجعله يجوب البلاد والجبال والوديان في أرجاء المعمورة دون أن يترك مكانًا فيها..

يصبح الحلم حملًا ثقيلًا خصوصًا عندما يكون شبه مستحيل، ذلك أن ما كان يؤمن به الناس أن وجودها مستحيل، كانت حكاية يتسلى بها الأجداد، لكن العطار لم يصدق ذلك وصدقه أيضًا في نفس الوقت، فكان كل من اليأس والأمل يأرجحانه بينهما، وهذا أكثر ما كان يعذبه، فتارة تأخذه الأحلام إليها فيؤمن بيقين أنها موجودة، وتارة يجره الواقع وكلام من حوله فيتخلى عن كل إيمانه...

كان العطار يتوغل في الجبال والمرتفعات، يقطف الأزهار ويصنع منها العطور، ثم يعود إلى المدن ويبيع العطور التي معه، أصبح مع مرور الزمن ماهرًا في صنع تراكيب العطور، فتفوق على جميع أقرانه...

وأصبح لهُ صيت وشهرة...لكن ذلك لم يُشبع غروره ولم يملأ جرف طموحه إلى المستحيل، فكان يسافر كل سنة على أمل اللقاء بما يبدو مستحيلًا...

بصيص الأمل وحبه لصنع العطور لم يمنعاه من مواصلة رحلاته الطويلة، عبر الغابات الواسعة في أرجاء المعمورة، رغم أنه أصبح يعرف كل زهرة وكل شجرة في المعمورة من رائحتها، ولم يعد يحتاج إلى تلك الرحلات المتعبة...ظل العطار يقوم برحلاته كل سنة دون توقف، إلى أن أصبح عمره يقارب الخمسين، لم يتزوج ولم ينشأ دكانًا أو يبني له

بيتًا، ولم يصبه اليأس، فحلم تحقق حلمه في إيجاد قرية السعادة، كان مسكرًا لدرجة جعلته ينسى في سكرهِ كل متعة أخرى..

في أحد الأيام وقد كان اليأس يكاد أن يوقف أرجوحته المعذبة، رأى عند ذلك الكهف المظلم ظلامًا حالكًا الذي كان يمر من جانبه، في كل مرة يسافر فيها حول أرجاء المعمورة باحثًا عن أريج الزهور التي يصنع منها عطوره...

لم يدفعه الفضول لدخول هذا الكهف في كل مرة من المرات العديدة التي مر بها من أمام فوهته المخيفة، فلم يكن إلا كهفًا كبقية الكهوف التي في أرجاء المعمورة، شعور غريب سيطر عليه، كان يحثه هذه المرة لدخول هذا الكهف بالتحديد، كان ذلك كومضة من ومضات عقله العبقري التي ترافق ابتكاره لعطر جديد...

من ناحية أخرى كانت تلوح في ذهنه فكرة عدم جدوى الشروع في تنفيذ الفكرة نفسها، توقف للحظات منتظرًا إلى أن هبت نسمة عليلة لامست خديه متّجه إلى داخل الكهف المظلم...كأنما هي تشجعه ليتبع ما يمليه عليه قلبه فأخذ القرار، ومضى دون اكتراث متتبعًا هذا الشعور الخافت والغريب...

عندما خطا خطواته الأولى داخل الكهف، هبت نسمة هواء آتية من داخل الكهف، لاحت فكرة في ذهنه، استنتاج طبيعي، إن كان هناك هواء يأتي من داخل الكهف فلا بد من وجود فتحة أخرى ربما قد تؤدي إلى..إلى....هنا توقف العطار عن التفكير، تاركًا كل تخمين، وكل أمل يُمكن أن يطفو على سطح خيبات أمله الكثيرة.

فما الذي كان سيجده هناك؟ إنه يبحث عن الزهور وقرية السعادة المحتمل عدم وجودها، وهذا كهف مظلم، على الأغلب أنه يؤدي إلى نهاية مسدودة أو إلى متاهة.....

في غمرة اليأس التي استولت عليه هذه المرة من إمكانية وجود قرية السعادة، ذهب خوفه من المجهول، الذي يُمكن أن يواجهه داخل الكهف.....

مضى دون تفكير بعد أن أشعل شعلة ليضيء بها العتمة المكتظة حوله...كان الكهف عميقًا ممتلئًا بالخفافيش والحشرات، لكن ذلك لم يوقفه من المضي قدمًا، بعد أن قطع شوطًا كبيرًا متوغلًا في الكهف، رأى ما لم يكن يتوقعه...

جدول صغير من الماء يؤدي إلى نور...مدخل آخر للكهف يبدو متهالكًا، استطاعت المياه أن تفتح ثغرة فيه لتصل إلى الجهة الأخرى .. أطفأ العطار الشعلة، وذهب إلى تلك الفتحة الصغيرة ليشاهد عبرها ما كان يبدو قبل لحظات حلمًا مستحيلًا ليس له مكان إلا في مخيلته الواسعة...

****

(٣)

ولد ناهد لأم تنتمي لعائلة الأشاعر وأب ينتمي لعائلة الهوازن، عند ولادته فرح أبواه أشد الفرح، كان مولودهم الأول الذي انتظراه بشوق ولمده طويلة...

المولود الأول يُطلق عليه (ثمرة المحبة) في لغة أهل قرية السعادة، تعبيرًا عن الفرحة الكبيرة التي يشعر بها كل من الزوجين المتحابين، عند استقبالهما لمولدهما الأول...

ترعرع ناهد في عائلة محبة نشيطًا وسعيدًا في طفولته، يلعب مع الأطفال، و يساعد أبويه في قطف الثمار الناضجة ذات العصارة السكرية.

كان ناهد جريئًا وعلى قدر من الجمال المبهر، ماهرًا في استعمال القوس، فكان يصيب الهدف بدقة على بعد مائة متر بكل سهولة.

عندما كبر وأصبح بسن الرابعة عشر، أي السن التي يستعد فيها الفتى للزواج، تقوس ظهره بشكل مفاجيء يدعو إلى الدهشة.

كان يقول أنه يحمل صخرة فوق ظهره، ولا يدري من أين أتت!؟ رغم أنه لم يكن يوجد شيء على ظهره، فقد كان هو وحده من يراها.

احتار طبيب القرية الذي كان ينتمي لعائلة الهوازن في أمره، كان يبدو كل شيء سليمًا، جرب معه كل الأدوية العشبية المختصة لعلاج أمراض الرقبة والعمود الفقري، لكن ذلك لم يجدي نفعًا.

كان ناهد يطلب من الطبيب بإلحاح أن يُزيل تلك الصخرة التي على ظهره، فيحاول الطبيب مسايرته بأخذ مطرقة كبيرة ثم يضرب بها في الهواء في نفس المكان الذي يشير إليه ناهد، علَّ ذلك يُقنع ناهد بعدم وجودها...لكن جواب ناهد دومًا كان أن الصخرة لا زالت في مكانها، وأن ضربات الطبيب دائمًا ما تخطأ هدفها...وعندما قيل له أن لا أحد في القرية يرى هذه الصخرة التي يزعم وجودها على ظهره غيره، وأنها ليست موجودة كما يدعي، ظن بعد محولاته الملحة لإقناعهم أن الكل يتآمر عليه وأنهم يُكذّبونه، ثم تطورت تلك الفكرة بعد فترة، فاعتقد أن هناك من ربط تلك الصخرة على ظهره.

كان الأمر محزنًا جدًا لناهد أن يكذب عليه الجميع حتى والديه، فكيف يمكن ألا تكون موجودة وهو يراها ويشعر بها...رغم أنه لم يكن يرها فعلًا...لأنها كانت تقبع وراء رقبته تمامًا، لكنه شعر بوجودها!؟ ألا يكفي شعوره بها لكي يصدق وجودها!! أثار ذلك حزنه وغضبه، ليس لأن كل من حوله أنكروا وجود الصخرة التي يشعر بها، لكن لأنهم لم يصدقوا شعوره بوجودها، لأول مرة أصبح هناك أحد غير سعيد على قرية السعادة، لم يكن شعور ناهد بعدم السعادة نابعًا عن كرهه أو حقده لمن لم يصدقوه، وإن كان في الظاهر يبدو كذلك...كان السبب الحقيقي لحزنه أن قلبه لم يعد قادرًا على أن يحب، كما أنه لم يكن قادرًا على أن يكره، لم يعد كما كان منذ أن وجدت تلك الصخرة على ظهره..

اعتزل ناهد الناس، لم يعد يحضر مواسم الحصاد والزواج، لم يكن يريد أن يرى أحدًا...ظل وحيدًا في الجبال والمرتفعات الخضراء المحيطة

بالقرية لمدة طويلة، يتأمل النجوم كل ليلة ويعيش بين الوحوش، يصطاد الغزلان من بعيد بسهام قوسه، يشتم روائح الزهور الزكية بأنفه، ويأكل مما تجود به الأشجار من ثمار.

لقد أدرك عدم الكمال في الوجود، لكنه أدرك أيضًا أن عدم كمال الوجود هو السر في بقاءه جميلًا..

دفع ناهد الكثير لكي يصل لتلك الحكمة، لكنه رضي بالمقابل، ومن تلك النقطة نفسها شعر بالسكون والحركة، بشهيق الكون وزفيره، بالانتظار واللقاء، بالخير والشر، وأخيرًا بالسعادة والتعاسة...

أدرك أنه كما أن هناك سعادة هناك تعاسة، وكما أن هناك على الأرض أناس سعداء، هناك أيضًا أناس تعساء.

فلم يعد يؤمن بقرية السعادة أو أن القرية الذي يعيش فيها تمثل السعادة الكاملة، ولا يعرف أحد إلى الآن أن إيمانه ذاك هو ما جعل الأحداث في القرية تتسارع إلى الجهة الأخرى جه التعاسة، أو أن تلك حقيقة كان يجب لقرية السعادة أن تواجهها..

كان هذا هو ناهد سليل جمال براقش و قوة رعد، الذي جعلهُ القدر يثبت للقرية أن الكمال لا يمكن أن يكون مكتملًا، كما أن للقمر جهة أخرى مظلمة.

****

(٤)

خرج العطار من الكهف لم يكد يصدق ما تراه عيناه، فالفرق بين ما قبل الكهف وبين المنظر الذي يراه الآن شاسع، كان الهواء له عبير مُختلف لم تألفه أنفه من قبل، فقد جاب المعمورة بكل بقاعها، لكنه لم يشم مثل تلك الروائح الجميلة قبل أن تطأ قدمه هذه الأرض.

كانت الأشجار المثمرة والزهور المتفتحة غريبة عنه، وهو الذي كان يعرف كل أنواع الزهور والثمار في المعمورة، ولم يكن أحد يستطيع منافسته أو يجرؤ أن يفعل ذلك، في كل أرجاء المعمورة، في ذلك الوقت عندما كان عمره يجاوز الخمسين، بلغ صيته عنان السماء في تحضير العطور بين الناس، كأمهر العطارين الذين يجيدون مزج التراكيب العطرية، حتى أن الملك نفسه لم يكن يشتري العطور إلا منه.

بدأ الناس يظنون أن قرية السعادة قد أفقدته عقله، لأنه رغم الشهرة التي بلغها في مهنته، والأموال التي كانت تهطل عليه هطول الأمطار من بيع العطور التي يبتكرها، لم يتوقف ولو لسنة واحدة عن رحلاته الطويلة في أرجاء البلاد باحثًا عن قرية السعادة، لم يستقر، ولم يتزوج، ولم يبني قصرًا وحاشية وخدم كما كان سيفعل أي تاجر عادي، يملك نصف ما كان يملكه من ثروة ونجاح.

ما هي السعادة التي كان يرجوها هذا الرجل والتي سيجدها في قرية السعادة التي وجودها أصلًا كان مجرد أكذوبة مشكوك في صحتها؟

كان هذا السؤال يُطرح دائمًا كلما ذكرت سيرة العطار بين أهالي المعمورة، ولا يجد أحد له إجابة.

لكنهم لم يدركوا ما كانت تتوق إليه نفس عمران في الواقع، فمجرد إثبات وجود قرية السعادة التي كان يحلم بها منذ الصغر، كان مُنتهى السعادة التي يتوق إليها قلبه.

كان ما يدور في خلد عمران في غمرة الفرحة التي يشعر بها الآن، هو الكلام الذي سيلقيه على الناس الذين أنكروا وجود قرية السعادة، وسخروا من بحثه عنها.

(ها هي قرية السعادة التي أنكرتم وجودها، وظننتم أنني مجنون في البحث عنها، ها هي موجودة أيها الأوغاد والأوباش والأغبياء)

كان ذلك يمثل لعمران قمة السعادة التي أفنى عمره من أجلها، كان يفكر بما سيقوله للناس في تلك اللحظة، رغم أنه لم يكن متأكدًا، من أن ما يراه الآن أمام عينيه هي أرض قرية السعادة التي أنهكه البحث عنها، أم أنها مجرد أرض لم يمر بها من قبل.

لكنه فكر بذلك في كل ليلة من قبل، وهو يبحث عن قرية السعادة في أرجاء المعمورة لخمسين عامًا، فما الضير أن يفكر بذلك الآن، وقد اقترب فعلًا من إيجادها...

كان عمران يمشي بين الأشجار والأحراش متشتتًا بشم زهرة جديدة وأخرى، ليحفظ رائحة كل واحدة منها، محتفظًا بتلك الرائحة الجديدة في أحد أدراج خزانة الروائح التي في عقله، تلك الخزانة التي لم تستقبل روائح جديدة مُنذ دهور.

حتى وإن كان كل هذا مجرد حلم، شعر عمران في قرارة نفسه أن قرية السعادة استحقت كل ذلك العناء للوصول إليها.

بين كل هذا التشتت والخليط من السعادة والفرحة والذهول الذي اعترى العطار، كان ناهد يراقب عمران من بعيد بسكون وهدوء...(من هذا؟) كان ذلك السؤال الأول الذي يطرحه ناهد على نفسه منذ سنين، فقد كف عن التساؤل منذ أن بلغ حدود المعرفة أو ظن أنه بلغها، فأصبح جزءًا من الكل.

لكن رؤية مخلوق بشري قزم لا يلبس الأزياء الملونة التي يلبسها أهل القرية، من المؤكد أنه أخرج ناهد عن طوره الغريب الذي تطور بمرور زمن عزلته.

أخذ ناهد قوسه ثم صوب أحد سهامه بدقة باتجاه عمران، الذي كان لا يزال يتحرك منتشيًا بسعادة اكتشافه لحقيقة أن أرض أحلامه الخيالية لم تكن خيالية بل إنها موجودة.

(٦)

لم يُصب السهم العطار لكنه أصاب الوردة الصفراء التي قطفها لتوه، أفزع ذلك عمران، فركض فزعًا باتجاه فتحة الكهف التي خرج منها، والتي لم يعد يدري أين مكانها؟ فالأشجار الكثيفة والطويلة جعلت المكان كالمتاهة.

أراد عمران الخروج من المكان متناسيًا كل الأحلام والأفكار عن القرية السعيدة التي أفنى عمره في البحث عنها، إنها لحظة التشبث بالحياة الغريبة التي تسيطر على الإنسان بدون إرادة منه في مثل تلك الظروف.

بينما كان العطار يجري هاربًا إلى اللامكان، محاولًا قدر الإمكان أن يبتعد عن رامي السهام الذي ظهر لقتله من حيث لا يدري، رأى على مسار طريقه على بعد خطوات منه فقط رجلًا غريبًا قوي البنية، شعره ولحيته كثيفتان شديدتا السواد، وجهه أبيض جميل تبرز منه عينان شديدتا الجمال والعمق، يلبس ملابسًا غريبة، ألوانها باهتة كورق الكتب القديمة.

لم يدرِ عمران ما الذي يجب عليه أن يفعله!!؟ قادته غريزته للاستغاثة بهذا الرجل، فقال بعد أن توقف عن الركض مستغيثًا، وقد أخذته نوبة هلع كادت أن تقطع أنفاسه المتسارعة:

– ساعدني أرجوك...هناك من يريد قتلي...رُميت بسهم كاد أن يقتلني

هناك كان اللقاء الذي سينهي عزلة ناهد وعزلة قرية السعادة، فقد عقد الاثنين صفقة سعادة ناهد وسعادة العطار..

كان ناهد يعرف أن قرية السعادة ليست هي الوحيدة في العالم، وأنه لا بد أن العالم أوسع من قريتهم، توصل ناهد إلى ذلك الاستنتاج أثناء عزلته الطويلة عن البشر في غمرة تأمله الطويل للكون، شعر بنبض الكون الواسع، فأيقن أن العالم أوسع.

كذب العطار على ناهد عندما قال له أنه يرى الصخرة التي أخبره ناهد أنه يشعر بها، كانت تلك أول كذبة تقال على أرض قرية السعادة، كانت مجرد كذبة بيضاء، أراد أن يبلغ بها العطار مُراده في الوصول إلى قرية السعادة التي ظل يحلم بإيجادها طيلة عقود...كان ذلك من جهة، ومن جهة أخرى أراد أن يقنع ناهد أن تلك الصخرة التي يشعر بها ليست موجودة، ولم يكن لذلك الحين يدري كيف سيفعل ذلك!!؟ لكنه سيفكر، كان موقنًا أنه سوف يجد حلًا لهذا المسألة التي تخص وجود قرية السعادة...فترك ذلك لغريزته التي دومًا ما وثق فيها..

كانت كذبة بيضاء على العموم، هذا ما آمن عمران به، كذبة بيضاء لن يتضرر منها أحد، لكنها رغم ذلك ما زالت كذبة، حتى ناهد لم يسلم وعده من الكذب، فقد كان يدرك في صميمه أن قرية السعادة لم تكن فعلًا قرية السعادة...على الأقل ذلك ما كان يشعر به في صميمه.

فكان الاتفاق بين الاثنين على هذا النحو:

"أن يزيل العطار صخرة ناهد الوهمية، فيدل ناهد العطار على قرية السعادة، ثم يرافق ناهد العطار في رحلته القادمة في أرجاء المعمورة"

وهنا صيغت أول وثيقة في قرية السعادة، وإن كانت كلامية، تلك الوثيقة الكلامية كانت سَتغير مستقبل قرية (كل شيء)، وحتى اسمها إلى الأبد.

****

(٧)

كانت قرية (كل شيء)، التي توشك أن تفقد ذلك الاسم، تعيش آخر أيامها دون أن تدرك ذلك، كان الأهالي في الحقول الواسعة يبذرون البذور للعام القادم في موسم البذر.

اعترى (غيمة) المرأة التي كانت طيبتها تجعلها ترضع كل الأطفال الذين يرفضون الرضاعة من أمهاتهم الهوزنيات، ظلت تلك المسألة الغريبة المتوارثة عالقة في عائلة الهوازن منذ ذلك الحفيد الذي رفض الرضاعة من أمه، وأرضعته جدة النواهد ناجدة، والغريب أيضًا أن الأطفال الذين كانوا يرفضون الرضاعة من أمهاتهم الهوزنيات لم يكونوا يتقبلون الرضاعة من نساء عائلة الأشاعر أو الأرامد أيضًا، لم يكونوا يقبلون الرضاعة إلا من نساء النواجد.

في اليوم الذي تقابل فيه ناهد والعطار، اعترى غيمة خوفٌ شديد يشبه خوف جدتها ناجدة، لم تكن تدري سبب ذلك الخوف، أعلنت لزوجها وولديها اللذين تزوجا حديثًا أنها تريد مغادرة القرية، قالت ذلك بصرامة، وكأن هناك أمرًا طارئًا سيحدث ولا بد أنه سيحدث، عندما كانت تُسأل عن السبب، كانت تتأتأ ثم تصمت شاردة الذهن، كما كانت تفعل جدتها ناجدة بالضبط، وعندما كانت تسأل إلى أين؟ كانت تقول أن الأرض واسعة، ولا بد من وجود مكان آخر للعيش فيه.

حاولوا بكافة السبل معرفة ما هو دافع قرارها المفاجئ هذا، ولم يتوصلوا إلا إلى استنتاج واحد (الخوف)، وعندما سُئلت عن الشيء الذي تخاف منه كانت تتأتأ ثم تصمت شاردة الذهن.

لم يوافق زوجها ولا أبنائها على الرحيل، وحاولوا إقناعها بعدم الخوف من الشيء الذي تخاف منه، كانوا يقولون لها أن ما تخاف منه مجرد وهم، فإلى أين يمكنهم الرحيل؟

ظلت تقاوم شبح خوفها لمدة طويلة، وصلت لتلك النقطة التي لم تعد تستطيع فيها المقاومة، فرحلت في أحد الأيام تاركة القرية والشيء المخيف فيها وراءها، ذلك الشيء الذي لم تكن تدري ماهيته؟ لكنها اتبعت حدسها، كما فعلت جدتها ناجدة، مُنذ رحلت لم يُسمع عنها أي خبر بعدها.

****

(٨)

ظل العطار عمران في الكهف، الذي يعيش فيه ناهد طيلة تلك الليلة، مفكرًا بالطريقة التي سيقنع بها ناهد أن الحجرة التي يتوهم وجودها قد أُزيلت ولم تعد موجودة..

كان الأمر مربكًا، إقناع شخص أن ما يشعر به أنه موجود، وهو بالفعل غير موجود، بأنه غير موجود.

ظل يفكر طوال الليل متأملًا ناهد الذي كان يُشعل النار ويحد سهامه في سكون وهدوء، لا يقاطعه إلا فرقعات الخشب الذي يحترق، وأصوات صراصير الليل وعواء الذئاب.

كانت هي نفس ملامح الليل التي عايشها في الغابات، منذ اليوم الذي قرر فيه الترحل بحثًا عن قرية السعادة، قبل اثنين وثلاثين سنة، لقد مر زمن طويل، وهو الآن يكاد أن يجدها..

حلم قرية السعادة شبه المستحيل، الذي ظل يكبر معه مُنذ أن كانت جدته تحكي له عنها، الذي تخلى من أجلها عن كل شيء..

لم يعد هناك إلا عقبة واحدة، إقناع شخص يؤمن بوجود شيء غير موجود، بأنه غير موجود، ظل عمران يفكر بالحل لتلك المسألة طيلة الليل، لم يصل إلى شيء يمكن أن يخلصه من هذه الورطة، غلبه النوم أخيرًا..

استيقظ عمران في الصباح الباكر، ليجد ناهد ينتظر أمام الكهف حاملًا سهامه وقوسه، خرج الاثنان في جولة لم ينطق فيها ناهد بكلمة، كان ينتظر بهدوء، كأنما الصخرة التي ظلت تزعجه لسنين طويلة ستختفي اليوم دون محالة.

أما العطار فقد كانت الأفكار والمشاعر تعصف بذهنه، كان يريد أن يعرف ما الذي يفكر فيه ناهد!!؟ ما الذي يجعله صامتًا هكذا؟! هل سيقتله ناهد إن لم يقنعه بعدم وجود تلك الصخرة على ظهره؟!

في كومة الأفكار والمشاعر التي كانت تكبر مع مرور الوقت، وأثناء مرورهما من أحد جداول الماء، وفي اللحظة التي رأى العطار انعكاس وجهه المشوه والخافت على الماء، لمعت في ذهنه تلك الفكرة التي ظن أنه سيستطيع بها إقناع ناهد ليس بعدم وجود تلك الصخرة، لكن بأنه هو من أزال الصخرة من على ظهره..

ابتسامة غير مكتملة وغير واثقة لاحت على وجهه إعجابًا بنفسه، لقد وجد الحل.

****

(٩)

نهر من الصبغة الحمراء المختلطة بلون بني داكن، كان ذلك الكابوس يتكرر مرارًا وتكرارًا، عند شخص واحد من عائلة الأشاعر منذ وصولهم إلى هذه القرية...

لم يكن ذلك الحلم كابوسًا بالنسبة لقرطز، والد الأسرة الثالثة من الأسر الأربع لعائلة الأشاعر الأولى التي وصلت القرية، بل بالعكس كان الحلم فال خير بالنسبة له ولجميع أفراد عائلة الأشاعر، وبشرة سارة دفعتهم للمكوث في القرية...

فقد فسر الأشاعر أن اللون الأحمر للنهر ينبأ بالسعادة والهناء والحب، الذي سيحظون به في هذه القرية، وأن كل ذلك سيكون مقترنًا وممزوجًا بلون تربة الأرض البنية لهذه القرية، ومدى اهتمامهم بها...

فقرنت السعادة بالتربة دائمًا عند الأشاعر، الذين دائمًا ما كانوا يؤمنون بما تحمله الألوان من معاني..

برهن الأشاعر على تصديقهم لذلك التفسير باهتمامهم بالأرض منذ وصولهم، فقد كانوا أكثر العوائل الدؤوبة في الزراعة والاهتمام بالأرض، والحرص على سلامتها من كل شائبة..

لقد جعلهم ذلك الحلم يحبون الأرض بصدق، فردت الأرض على حبهم وعطائهم بعطاء ليس محدودًا من الثمار والزهور للقرية بأكملها.

وهناك شاع مثلٌ بين الناس يقول:

"الحلم أصبح حقيقة بإيمان قلوب الأشاعر"

وكان يُرمى من هذا المثل:
أنه كلما كان الإيمان بتحقيق الحلم يقينًا، كلما يصبح الحلم واقعًا كما فعل الأشاعر بتفسير ذلك الحلم والإيمان بتحقيق الفال الحسن به..
وشاع ذلك المثل بين أهل القرية، فأصبحت الأحلام غالبًا ما تتحقق بيقين صاحبها بتحققها، وأصبح ذلك اليقين عادة يتعلمها الأطفال مُنذ الصغر في كل العوائل.
ساهم ذلك في استمرار (كل شيء) في القرية لكل تلك الفترة الطويلة بكل تأكيد، الغريب في ذلك الحلم أنه ظل مستمرًا، ينتقل من ابن إلى ابن في أسرة قرطز إلى يومنا هذا، فكان لا بد من وجود فرد في الأسرة يحلم بذلك الحلم في كل جيل، وكان المختار في الأسرة هذه المرة هو سام ابن أب ينتمي لعائلة الأشاعر، وأم تنتمي لعائلة الهوازن، كان سليل للجد قرطز الذي نمت عائلته وتوسع أفرادها.
فأصبح من يحلم بذلك الحلم في كل جيل يُنادى بلقب (المختار) في قرية السعادة كان سام أسمر البشرة، قوي البنية، محب ورقيق المشاعر، والصفة الأخيرة هي التي كانت تميز أفراد عائلة الأشاعر بأكملها، فقد كانوا طيبين ومشاعرهم رقيقة.
عندما ولد شعرت أمه من نظراته التي كان يجوب بها الغرفة، كأنما هو يستفسر عن شيء، أنه سيصبح شديد الذكاء، كان حدسها يخبرها بذلك فكان ذكيًا فعلًا، وكانت عينيه تعبر عن الاستفسار أكثر كلما تقدم في العمر.

كان يزعج من حوله غالبًا بأسئلته الكثيرة، كأن يقول لصديقه، وهما يقطفان الثمار، لماذا تلك الشجرة وافرة المحصول وتلك محصولها قليل؟!

لم يكن أحد يستطيع الإجابة عن أسئلته، لأنهم لا يعرفون، وما الحاجة لأن يعرفوا!! فقد خلقت الأشجار هكذا منها ما هو محصوله وفير، ومنها ما يكون محصوله قليل وهكذا.

كانت الإجابات عن كل الأسئلة التي يسألها:

"لأنها خُلقت هكذا"

لكن تلك الإجابات لم تكن ترضي فضول سام، أو تخمد توقد عقله الشديد للمعرفة..

فكان يبحث في كشف إجابة كل سؤال مطولًا، يفكر في كل مسألة لعدة أيام، فإن لم يجد حلًا لها، وهذا ما كان يحصل غالبًا، نسي السؤال وذهب ليسأل سؤالًا آخر وهكذا.

كان طرح تلك الأسئلة يبعث في نفسه شعورًا بالنشوة والزهو.

لم يكن يتوقع أحد أن سام سيكون المختار في هذا الجيل، لكن الجميع كان ينتظر ظهور المختار الجديد، فقد مر على موت المختار السابق، الذي تعدى عمره المائة سنة تقريبًا، سنتان تقريبًا، ولم يظهر المختار الجديد الذي طال تأخر ظهوره هذه المرة إلى الآن، على غير العادة.

كان جميع من في القرية يريد أن يعيش المختار، الذي بلغ عمره المائة، أكثر من تلك المدة فقد كان بوجهه المبتسم والمتفائل، يبعث السعادة في قلوب جميع من في القرية.

لكن موته كان قضاءً محتومًا قاهرًا، فلم يوجد ولن يوجد إنسان خالد إلى الأبد حتى في قرية السعادة..

شُيع المختار السابق في جنازة اجتمع فيها كل أفراد القرية، لم يكن الحزن يتزين الجنازات في القرية، فمن يموت يذهب إلى نهر الخلود ليصل إلى مكان آخر لم يكن أكثر سعادة أو رخاءً من قريتهم السعيدة.

لكنه مكان يجتمع فيه الأجداد مع الأحفاد وتتلاشى فيه خيوط الزمن، كان هذا هو الاعتقاد السائد في القرية فيما يخص الموت.

دُهش الجميع عندما عرفوا أن سام هو المختار الجديد، ولم تكن دهشتهم أكثر من دهشة سام نفسه، فقد بدأ يحلم بذلك الحلم كل يوم مرارًا وتكرارًا "نهر الصبغة الحمراء المختلط بالون البني الغامق".

أشغله ذلك الحلم عن كل الأسئلة التي كان يطرحها على نفسه، في مواجهة سؤال واحد، لماذا كان هو المختار؟! ومن اختاره؟! وعلى ماذا كان يستند تفسير ألوان النهر الذي أعلنت عنه عوائل الأشاعر الأولى؟! لماذا يُعبر اللون الأحمر للنهر عن الحب؟ واللون البني للصبغة البنية الممتزجة فيه عن التربة؟ هل يُمكن أن يكون هناك تفسير آخر لهذه الألوان التي يراها في كل ليلة؟ وكان الجزء الأخير من الأسئلة عن تفسير الألوان، هو الأخطر من بين كل تلك الأسئلة التي طرحها سام مُنذ بدأ يراوده حلم الأشاعر.

فلم يسبق لأحد أن سأل مثل هذا السؤال من قبل؟

كانت الفلسفة القائمة في القرية تقول:

"أن ما خلق هكذا، فقد خلق هكذا، وسيظل هكذا، وليس هناك سبب ليكون غير هكذا"

لم تُصغ تلك الفلسفة من قبل أحد، ولم تُكتب، كانت تلك الفلسفة نابعة من اليقين الذي توارثته الأجيال جيلًا بعد جيل في القرية.

لم يتحدث سام، الذي صار يطلق عليه لقب المختار، عن الأسئلة التي كانت تتقد في داخله.

وتوقف عن طرح الأسئلة منذ أن أصبح مختارًا، لكنه لم يتوقف أبدًا عن طرح هذا السؤال على نفسه كل ليلة.

لماذا لا يكون هناك تفسير آخر للألوان؟ وما الذي يُثبت صحة تفسير جده لهذه الألوان؟

هل يُمكن أن يكون لها تفسير آخر غير هذا التفسير؟ وما الذي يمنع إمكانية أن يكون لتلك الألوان تفسير آخر؟ كأن يُعبّر اللون الأحمر عن الزهور مثلًا، وتُعبّر الصبغة البنية الداكنة عن لون بشرة الأشاعر نفسهم مثلًا.

كانت هذه الأسئلة التي تتعلق بتفسير ألوان حلم النهر الأحمر، الذي يختلط بالصبغة البنية الداكنة، لوحدها كافية لبعث نشوة وزهو طرح الأسئلة التي كان يشعر بهما سام لبقية عمره.

لذلك كان سام، مختار القرية، هو أول المرحبين بقدوم العطار، عندما جاء برفقة ناهد، الذي لم يعد ظهره مقوسًا كما كان عندما هجر القرية، عله يجد إجابات لأسئلته الكثيرة التي تتعلق بتفسير حلم جده قرطز.

****

(١٠)

عاد ناهد والعطار إلى الكهف، لم يحقق العطار ما وعد به ناهد بعد، ولم يسأل ناهد العطار عما إن كان سيحقق وعده له بإزالة الصخرة أم لا، و لم يستفسر منه عن الطريقة التي سيزيل بها الصخرة التي على ظهره.

كان غارقًا في صمته وسكونه الأبدي طيلة اليوم، كأنما هو الصخرة نفسها التي يظن أنها على ظهره، لا يفكر ولا يشعر، لكن ذلك الصمت الطويل أضنى العطار، فكان يزيد من قلقه وشكه وتسائله بشكل عصبي مع مرور الوقت وهو يراقب ناهد، الذي لا تُبدي حتى ملامحه ما يدور في خلده.

نهض العطار من مكانه الذي ينام فيه داخل كهف ناهد دون أي إنذار، واقترب من ناهد محطمًا شباك الصمت، الذي كان يخنقه رويدًا رويدًا قائلًا لناهد أنه سوف يخلصه من تلك الصخرة اللعينة تلك الليلة، وأن الصخرة لا يمكن إزالتها إلا وهو نائم وفي صباح الغد ستكون الصخرة قد تفتت وذهبت أدراج الرياح.

حاول العطار جاهدًا أن يعرض فكرته، التي لم يكن مقتنعًا بها بشكل متقن ومقنع، كأنما يروج لعظمة أحد عطوره أمام مشتري ثري في أحد الأسواق، عندما كان شابًا مبتدئًا في مهنة تصنيع العطور.

لم يكن إقناع ناهد يتطلب كل ذلك الجهد، فقد كان سيصدقه إن كان عرضه رديئًا أو متقنًا، لأنه لم يسبق لناهد أن عرف أن هناك من يكذب أو أن الكذب والخداع موجودان أساسًا.

أومأ ناهد للعطار موافقًا، وذهب للنوم مستلقيًا على فراشه الصوفي، وما هي إلا لحظات وكان قد غط في نوم عميق، كجندي ينفذ أمرًا ألقي عليه من قائده بكل إخلاص ودون اعتراض...جلس العطار بجانب النار مستيقظًا مفكرًا بعمق، راجيًا أن تُفلح حيلته في إقناع ناهد، أن الصخرة التي يتوهم وجودها ليست موجودة.

عندما أشرقت الشمس، ملقية بضوئها الأصفر الباهت، على مدخل الكهف، كان العطار قد نفذ كل شيء أعده وخطط له مسبقًا، وضع كومة من الفتات الترابي بجانب ناهد، ثم أخرج مطرقته الصغيرة من حقيبته، وجلس أمام ناهد منتظرًا استيقاظه.

عندما استيقظ ناهد، كانت أشعة الشمس قد تسللت ملقية بحرارة أشعتها على جسمه، وكان ذلك هو توقيت استيقاظه في كل يوم، رأى ناهد العطار بجانبه حاملًا مطرقة صغيرة في يده، وشيء لم يكن يعرفه في يد أخرى، والكثير من الفتات الترابي بجانبه.

أشرقت روحه بسعادة غامرة لم يذقها منذ فترة طويلة، لقد تخلص منها أخيرًا على يد هذا الرجل المبارك، لم يعد يشعر بوجودها، ولم يعد عليه أن يحني رأسه بعد الآن.

لاحت ابتسامة على وجهه لم يفهمها العطار لوهلة، والذي كان ينوي أن يخطو الخطوة الثانية والأهم لإقناع ناهد بعدم وجود الصخرة كما يعتقد، لكنه استغرب من سرعة تغير ملامح ناهد من الحزن العميق إلى الفرحة الغامرة.

فرح هو أيضًا وأقدم على تقديم المرآة التي اشتراها من السوق قبل رحلة هذه السنة، رغم أنه لم يتوقع أنه سيحتاجها يومًا ما، كان يكره المرايا عمومًا، لأنها كانت تذكره بمرور الزمن وتقدمه في السن، لكن شعورًا عجيبًا دفعه إلى شراءها، ها هي الصدف قد اجتمعت من حيث لا يدري لتصل به إلى قرية السعادة.

عندما أمسك ناهد المرآة، ورأى انعكاس وجه لم يكن حينها يؤمن بوجود الصخرة في الأساس، لكنه عندما رأى انعكاس صورته عليها زاد ذلك من سعادته وإيمانه، لم يكن ينظر إلى انعكاس صورته بالفعل، كان ينظر لصفاء روحه التى كان يراها مشوشة دائمًا، عندما ينظر إلى انعكاسها في مياه أحد الجداول.

أحب ناهد تلك المرآة حبًا عميقًا، كأنما روحه تقبع فيها، كأنما المرآة هي الشمس التي تمد أقمار روحه بالضياء، شعر ناهد بالامتنان، بل والتقديس تجاه العطار، حزم كل شيء بسرعة ونطق بتلك الكلمة (هيا).

لم يكن العطار يتوقع أن الأمر سيكون بهذه السهولة، انتقلت عدوى الفرح والسعادة من ناهد إليه فمشيا معًا متجهين إلى القرية، لكن هذه المره كان ناهد يمشي مستقيم القامة بفخر وعزة ليس لهما مثيل.

****

(١١)

ظهرت قرية السعادة بألوانها البراقة المنسجمة مع الأشجار المحيطة، التي تتعانق ألوانها الخضراء مع ألوان الثمار والأزهار النضرة في لوحة من الجمال الساحر. لم ترَ عين العطار مثل هذا الجمال على مدى السنوات الثلاثين والنصف، التي جال فيها أرجاء كل المعمورة.

كان العطار يقف مع ناهد على الجبل المطل على القرية، خالجه شعور تخيله عدة مرات من قبل، وهو ينظر إلى قرية السعادة التي حلم بها، والتي أنكر وجودها كل من عرفه، لكن خياله الواسع كان عاجزًا أمام الواقع الجميل لقرية السعادة التي يراها أمام عينيه.

كان ينظر لأفراد الأسر التي تلبس الملابس المختلطة بالألوان الفريدة، كانت ألوان ملابسهم مفعمة بالحياة وجمال خلقتهم ليس لهُ مثيل، لحظة من ذروة السعادة الهادئة بعد تعب ومشقة، اللحظة التي جعلت أرجوحة اليأس والأمل المعذبة التي رافقته لزمن طويل تقف بالمنتصف عند خط اليقين.

لم يكن يدري عمران العطار أن تلك اللحظة التي أفنى عمره من أجلها ستكلف القرية الكثير، أنها ستكون السبب في دمارها الذي سيشهده هو بنفسه نادمًا على ما أفنى عمره بتدميره.

****

(١٢)

البحث عن المعرفة طريق سلكه نوران منذ وعي على هذه الدنيا، كان والده عالمًا غزير العلم من علماء بلاط الملك، تولى ابن الملك الأكبر والذي له أخ أكبر ثاني قتله في خضم الصراع على العرش، بعد أن توفي الملك في ظروف غامضة.

قُتل والد نوران بسبب موقفه من قضية تافهة، والتي تسمى (أيهما أتى أولًا):

الأرض أم الشمس، البيضة أم الديك، الروح أم الجسم...وهلم جرًا، فقد كان والد نوران (جبران) رئيسًا لعلماء البلاط، الذين قرروا أن الأرض والديك والروح...أتوا أولًا...وهذا هو الرأي الذي تبناه الملك السابق للمعمورة.

أما الملك الجديد الذي اعتلى العرش كان له رأي معاكس في هذه المسألة فقد كان يظن أن الشمس، والبيضة، والجسد...أتوا أولًا.

ووقف معه في هذا أغلب رجال الدين، أو لنقل كلهم فلم يكن يستطيع أحد مخالفة ما يقوله الملك خوفًا من بطشه وجبروته...ولم يتبقَ منهم سوى (جبران) الذي واجه الملك الجديد بكل ثقة ودون خوف، مصرًا على رأيه الذي كان يعتقد دون شك أنه الرأي الصحيح، فكان مصيره أن يُرمى في قدر من الزيت المغلي.

استقى نوران الكثير من علم أبوه قبل موته، كما أنه ورث عنه غزارة الذكاء وحب الاطلاع، غضب نوران على المصير الذي لاقاه والده

كثيرًا، كانت أمه هي الأخرى قد ماتت، فبقي لوحده يتيمًا في مواجهة هذا العالم منذ طفولته.

تبناه عمه الذي كان تاجرًا كبيرًا في المدينة، وكان هو الآخر قد صدق رأي الملك الجديد بكل إخلاص معلنًا عن خضوعه في بلاط الملك الذي قتل أخاه...الأصح أنه كان مصدقًا لكلا الأمرين مرة واحدة، أقُتل أخاه، أم لم يقتل؟ ما دام أحدهما يحفظ مصالحه التجارية القذرة.

كان كلما لقي نوران، ألقى اللوم على والده، معاتبًا إياه أشد العتاب، ساخرًا من تمسكه برأيه أمام الملك

كان يقول لنوران:

"لقد ذهب أبوك إلى الهلاك برجليه ذلك الغبي، كان سيظل في حظوة الملك الجديد، كما كان في حظوة الملك السابق، لكنه اختار التمسك برأيه أمام الملك، فما الذي جناه لقد مات، بينما من كانوا أقل مرتبة منه أخذوا مكانه..

ماذا كان عساي أن أفعل له؟ لقد نصحتهُ لكنه رفض النصيحة، ولو أنه صدقني لكان يعيش الآن في قصر كبير...ولما بُليت بك..."

حاول نوران أن يثبت أن الموقف الذي تبناه يستحق أن يموت الرجال في سبيله، كان أكثر ما يخيفه هو أن والده قد أخطأ في التقدير وبالغ في التعنت من أجل شيء لا يستحق...

راح نوران يقرأ في جميع الكتب التي كُتبت عن هذه القضية، والتي لم يكتب عنها، زاد علمه وأطلاعه مع بحثه، توصل في الأخير إلى النتيجة المُرة، التي تألم من حقيقتها أكثر من حقيقة قتل أباه...وهي:

"أن كلا الأمرين كانا يحتملان الصواب والخطأ، ولم يجد أي دليل أو قول يثبت صحة أيهما أتى أولًا...كان جدال عقيم في أمر لا يستحق الجدال فيه، أدى إلى موت والده"

اكتشاف نوران لهذه الحقيقة كان مؤلمًا، كطعنة أحدثت جرحًا عميقًا لا يُمكن أن يُمحى أثره بمرور الزمن.

لكنه في نفس الوقت لم يُدرك أن أباه لم يواجه الملك بسبب قضية أيهما أولًا، لقد واجهه لأنه كره ظلمه وجبروته وبطشه، وتلك أسمى قضية يمكن أن يموت أي عالم من أجلها.

عدم إدراك نوران لهذا الأمر أورده إلى طريق آخر بعيد كل البعد عن الطريق الذي رصفه لهُ والده.

فصار يكره العلم والعلماء والملوك والناس، أراد الانتقام من كل إنسان، أصبح قلبه مسودًا كارهًا.

أدرك أن العلم يمكن أن يكون هدامًا أو بناءً، خيرًا أو شريرًا، حقودًا أو متسامحًا ذلك ما أخبره والده به قبل أن يُقتل:

((العلم يا بُني عصى العالم، يمكن أن يقود بها العميان إلى النور أو الظلام))

كان نوران ذكيًا ليفهم ما يعنيه أباه، فقرر أن يقود العميان إلى الظلام الدامس، إلى ظلام التعاسة التي خيمت على قلبه، مُنذ أن توهم أن والده مات في سبيل قضية تافهة، لا تستحق حتى الموت من أجلها.

سرعان ما استطاع نوران أن يلفت انتباه الملك بعلمه وشدة ذكاءه، ليصبح هو الآخر من علماء البلاط عندما تقدم بالعمر.

وفي فترة قصيرة سيطر على قلب الملك بذكائه الشرير، ليكون من أقرب مستشاريه، وأكثر العلماء حظوة عنده. قام بقتل عمه ثم جميع العلماء الآخرين، الذين خذلوا أباه، لم يكن هو من يقتلهم كان هو من يملك عصى الأعمى الذي قتلهم، وهو نفسه الملك الذي قتل أباه.

ثم أخيرًا قام بقتل الملك نفسه بعصى ابنه الذي طمع بالحكم، وهناك انتقل ليصب حمم حقده على الناس

سيطر على عصى الملك الشاب الذي قتل أباه بسهولة، فأذاق الناس جميع ألوان وأصناف العذاب، بنى القصور، وجمع الثروات، وتزوج أجمل النساء، وأكل أجود الطعام، حظى بكل ما يمكن للمرء أن يحلم به في هذا العالم...لكنه لم يحظَ بالسعادة، حتى وهو في ذروة الشعور بلذة الانتقام الذي كان يرجوه.

كان قد قرأ كثيرًا عن وجود قرية السعادة، فقرر البدء في البحث عنها، ليس ليكون سعيدًا، فقد أدرك أنه لم يعد قادرًاعلى ذلك، بل ليجعل الناس الذين عليها أيضًا تعساءً بعصيهم...

****

(١٣)

دخل ناهد برفقة العطار إلى القرية فتجمع كل من فيها حولهم، مستفسرين من ناهد عن هوية القادم معه والذي يلبس ملابسًا غريبة تدعو إلى الدهشة، فهي بيضاء بالكامل وليس عليها أي ألوان.

فكان ناهد يجيب الجميع بابتسامة عريضة (هذا هو من نزع الصخرة التي كانت على ظهري)، ثم يضحك من فرط السعادة ناظرًا إلى المرآة التي في يده.

استغرب الجميع عدم لبس العطار للملابس الملونة، فشاع خبر بين سكان القرية، استنتجه المختار سام من ثلاثة أسئلة طرحها على نفسه. مبتعدًا عن سؤال ألوان الأشاعر، الذي أشغله منذ فترة عن طرح أي سؤال آخر وهم:

أين كان ناهد طوال تلك المدة؟ من أين أتى هذا الرجل؟

ولماذا يلبس هذا الإنسان ملابسًا بيضاءً كما كان يلبس أجدادهم الأوائل؟

فأتى الجواب هكذا:

"أن الرجل الذي أتى هو من أحد أجداد النواجد أو الهوازن...عاد مع ناهد عبر نهر الخلود من أرض الخلود"

كان القسم الثاني من الإجابة اعتقاداً آمن به أهل القرية، منذ غاب ناهد عن القرية ولم يرَه أحد بعدها...مُنذ ذلك الحين، ظن الجميع أن ذلك

المرض الذي عانى منه ناهد جعله يموت، فانتقل عبر نهر الخلود إلى أرض الخلود.

وهذا ما جعلهم يتقبلون افتراض المختار، والذي لا يمكن أن يكون كلامه غير اليقين، لأن من افترضه هو المختار.

تقبل ناهد هذه الفكرة أيضًا متناسيًا المعمورة، التي أخبره عنها العطار منذ يومين متماشيًا مع السياق الذي وضعه فيه الخبر، لم يكن في ذلك الوقت يهتم بأي شيء، فقد عاد إلى ما كان عليه قبل وجود الصخرة، وأصبح جزءًا من أفراد القرية الذين يصدقون كل ما يقال بطيب خاطر.

زاد ذلك الخبر من حظوة العطار ومكانته بين أهل القرية، فأقيمت الاحتفالات لقدومه، ودعي من قبل عائلة النواجد والنواهد للمبيت في بيوتهم، فكان ينام ليلة في ذلك البيت وليلة في البيت الآخر.

واقترح عليه الأشاعر تلوين ملابسه، فدهنت هي أيضًا نصفها بألوان ملابس النواهد، والآخر بألوان ملابس النواجد.

لأن العطار لم يفصح عن هوية العائلة التي ينتمي إليها كلما سُئل عن ذلك، كان يقول "أن في أرض الخلود تكون جميع العوائل عائلة واحدة".

وقد أضاف ذلك من عنده متجنبًا إحزان إحدى العائلتين، وصار ذلك من الاعتقادات الراسخة عند أهل القرية بعد رحيله.

كان العطار يعيش الحلم بكل تفاصيله، يرافقه ناهد الذي ظل ممسكًا المرآة بيده كأنما هي جزء منه، مُنذ أن رأى انعكاس روحه النقية عليها...

شعر العطار بعد أن ظل أشهرًا في القرية أنه يود الذهاب.
كان المختار يزوره معظم الأحيان مستفسرًا بشراهة عما يريد معرفته، جواب السؤال، سؤال الأسئلة الذي كان يشغله عن أي سؤال آخر:
"على ماذا يستند تفسير عوائل الأشاعر لنهر الألوان الذي يحلم به كل يوم؟"
فكان رد العطار الذكي أنه لم يكن موجودًا إلا قبل قدوم الأشاعر لكن حسب
معرفته أن الألوان يمكن أن يكون لها أكثر من تفسير...
فاللون الأحمر يمكن أن يفسر بالحب أو بالدم
واللون البني يمكن أن يفسر بالتربة أو بلون بشرة الأشاعر الداكنة.
كانت تلك الإجابة كافية بالنسبة للمختار سام، فاللون يمكن أن يكون له أكثر من تفسير ومعنى...وهناك بدأ الشك يزوره عن حقيقة ما تعنيه تلك الألوان، سيظل هذا الشك شبحه الذي سيؤدي في النهاية إلى تدمير يقينه.

****

(١٤)

كان برق شابًا طموحًا من أهل القرية ينتمي لعائلة النواجد، والداه ينتميان لنفس العائلة، وبات يلازم العطار كلما استقر في بيت عائلة النواجد....

كان العطار بالنسبة إليه شخص مقدس أتى من أرض الخلود، التي انتقلت إليها أمه في سن مبكرة، وهي تلد به، كان دومًا يسأل العطار عن أحوالها وعن أرض الخلود، لم يستطع العطار أن يجد إجابات شافية لأسئلة الشاب الذي لم يكن يتوقف عن طرح الأسئلة عن كل ما يتعلق بوالدته، وعن جدته، وعن المختار السابق الذي كان برق يحبهُ حبًا جمًا.

لم يكن العطار يعرف شيئًا عن والدة الصبي ولا عن أرض الخلود، فقرر أن يخبر الصبي بالحقيقة، لكي يتخلص من هذه الكذبة، التي بدأت تتفاقم. فقال له:

"أنه لا وجود لأرض الخلود، وأنه لا يوجد مكان يمكن أن يكون فيه الإنسان سعيد أكثر من قرية السعادة"

بكى برق بكاءً شديدًا لثلاثة أيام، بعدها فقد الصبي المسكين سعادته، ودب الحزن في قلبه، وعندما كان يُسئل عن سبب حزنه، كان ينظر إلى السماء بحسرة، وتعلوا وجهه ملامح التجهم والغضب والكآبة، كأنما مصابًا جللًا قد ألم به.

كان العطار كلما أتى إلى بيت النواجد، وشاهد وجه الصبي الحزين والبائس شعر بالندم وتأنيب للضمير.

كان الدافع وراء إخبار العطار للفتى بعدم وجود مكان يمكن أن يكون فيه الإنسان أكثر سعادة من قرية السعادة، هو رغبته في قول الحقيقة التي يؤمن بها، ولو لذلك الفتى الذي شعر بالأنس معه، لم يكن يدري أن كلامه سيحدث ذلك التغيير الرهيب في نفسية الفتى، الذي لم تكن البسمة تُفارق وجهه من قبل...

فأصبح مضطرًا الآن لأن يكذب كذبة جديدة، تخرج الفتى المسكين من تلك الحالة فقال له:

"أن أمه تقبع الآن في مكان أكثر سعادة من قرية السعادة"

فدحض بتلك الكذبة ما كان يؤمن به طيلة عمره...

"أن السعادة يمكن أن تكون مكتملة في مكان ما هنا على الأرض والدليل على ذلك أثبته مؤخرًا بإيجاده لقرية السعادة التي أنكر الجميع وجودها"

كان العطار بتلك الكذبات التي يلقيها يدس السم في العسل، سم سيظل يتفشى وينتشر على مدى عقود، حتى ينتهي العسل كله. راح الفتى بسعادة غامرة يذيع الخبر غير المعقول بين أهالي القرية، بعد أن أرجعت كذبة العطار الحياة والسعادة إليه، فذهب الجميع إلى المختار ليعرفوا صحة هذا الخبر والذي بنفسه المتشككة، لم يستطع دحض هذا الكلام، كما كان سيفعل أي مختار آخر.

ذهب المختار ومعه مجموعة من عقلاء العوائل الأربعة، للتأكد من الخبر غير المعقول الذي يقوله الفتى.

وجد العطار نفسه في ورطة جديدة، فاصطنع حيلة جديدة متمنيًا أن تنطلي عليهم كما انطلت حيلته على ناهد.

راح يقول بكل ثقة، مستفيدًا من مهارات الإقناع والتأثير التي اكتسبها من مهنته كعطار:

"هناك فعلًا مكان يكون فيه الناس أكثر سعادة من قرية السعادة، وهي أرض الخلود، فالناس هناك أكثر سعادة والثمار أكثر حلاوة والزهور أكثر جمالًا وروائحها أجمل"

ثم أخرج العطار من حقيبته زجاجة العطر التي أفنى عمره في صنعها، متمنيًا من قلبه أن تُقنع رائحتها الجميلة الحضور بصحة ادعاءه، سكب منه قليلًا على ثوب قطني، ثم أعطاه للمختار، الذي بدوره مرره إلى جميع من كانوا حاضرين من عقلاء العوائل الأربعة...

رائحة العطر النفاذة والهادئة أسرت قلوب كل من كان في بيت الهوازن، حيث اجتمع المختار وممثلي العوائل مع العطار، لم يكن هناك رائحة في قرية السعادة تضاهي جمال رائحة العطر، الذي كان مع العطار.

كان العطار قد جمع في ذلك العطر كل روائح الزهور الجميلة في كل أرجاء المعمورة، وخلطها وعدل فيها طوال السنين التي اشتغل فيها في صناعة العطور، فكان ذلك العطر هو ثمرة خبرته وعمله الدؤوب لمدة ثلاثين عامًا.

صُعق الجميع أمام الدليل القوي والذي لا يمكن دحضه، رائحة العطر بالتأكيد أتت من مكان أكثر سعادة من قرية السعادة، وبما أن العطار جاء من أرض الخلود، فلا بد أن من يعيشون هناك أكثر سعادة، تلك هي الخلاصة التي استنتجها المختار وممثلي العوائل.

وهنا غيرت هذه الكذبة الاعتقاد الراسخ عند أهل القرية، الذي يقول أن هذا المكان لا يختلف عن أرض الخلود في سعادته...الغريب والمثير للسخرية في آن واحد، أن كذبة العطار كانت تنافي ما كان يؤمن به هو نفسه.

"أن قرية السعادة هي المكان الذي يجب أن يكون فيه الإنسان أكثر سعادة على وجه المعمورة"

رحل العطار عن القرية بعد ثلاثة أيام، برفقة ناهد كي يثبت لسكان المعمورة ما أنكروه طيلة كل تلك السنين التي بحث فيها عن قرية السعادة ، كي يذوق طعم النصر الذي كان وما يزال يتوق إليه بشدة...

****

الجزء الثاني

(١)

أطل نوار على قرية السعادة لوحده من نفس المكان الذي أطل منه رجل باع حلمه من قبل، جاء نوار لوحده عازمًا على أن يحول القرية السعيدة إلى مكان تعيس بعصى أهلها، كما كان قد وعد نفسه بذلك من قبل، كان يبتسم بفخر وهو يرى القرية الجميلة، قد تحولت إلى مكان تعيس بسببه...

كان قادرًا على أن يأتي بجيش ويغزو المكان، يسبي النساء والأولاد، ويقتل الرجال لكن ذلك لم يكن ليرضي غروره، كان يريد أن يحطم القرية بأيدي سكانها.

كان سيستخدم الحيل نفسها التي جعل بها أهل المعمورة تعساء، لكنه هذه المرة أراد أن يفعلها بخبرة المحترف الذي رأى تحديًا جديدًا يرغب في اجتيازه...كان يكره أن يرى مكانًا يعبق بقليل من السعادة، أن يرى الابتسامة حتى على شفتي طفل يركض...فكيف بقرية أهلها جميعًا سعداء، بل أنهم لا يعرفون معنى التعاسة...أثارت الفكرة وحدها غضبه، وهو ينظر إلى قرية السعادة...معدًا الخطط التي سيغوي بها سُكان هذه الأرض السعيدة.

عرف نوار أن الخير والطيبة بين أهل القرية هما الركيزة الأقوى من بين الركائز، التي تقوم عليها سعادة أهل القرية التي إن انهارت، انهارت بعدها بقية الركائز بسهولة.

فالخير قوي بالأفكار والاعتقادات الخيرة وبالأناس الذين يؤمنون بها، ولا يمكن أن يُنتزع الخير من الناس الخيرين بالقوة أو الإجبار.

لأنه في ذلك الوقت سيعرف أهل الخير بأن ما يواجهونه هو الشر وسيقاومه مُعظمهم، إن ظهر لهم بثوبه المتسخ وشكله الممسوخ المشوه، الذي يدعو إلى النفور.

كانت خطته التي تفلح دومًا، أن يجعل الأناس الخيرين يقبلون الأفكار الشريرة على أنها خيرة، وبذلك يظنون أن اعتقاداتهم الشريرة خيرة، وعند ذلك يكون الخير ضعيفًا والشر قويًا لكن الناس يعتقدون العكس، فتختلط عليهم الاعتقادات والأفكار الخيرة والشريرة منها الخبيثة والطيبة، عند ذلك تتدفق عاصفة قوية من الشكوك تنزع كل ما هو خير وسعيد.

لم يكن فعل ذلك هينًا، كان يحتاج أن يكون الشرير ذكيًا كفاية، بحيث يكون ليس موجودًا أو مختفيًا كان ذلك كخدعة سحرية بالنسبة لنوار، تتطلب الكثير من الإتقان ليقتنع الجميع بأن ما يحدث محض مصادفات عشوائية، ليس للساحر الذي يختبئ خلف الستار أي يد في حدوثها.

دخل نوار القرية لابسًا السواد مبتسمًا كأنما أراد أن يقول أنا شخص جديد لا أنتمي لأي من عوائلكم القديمة

أثار دخول نوار دهشة أهل القرية كلهم وأولهم المختار سام، الذي أصبح كبيرًا الآن لتختفي تلك الدهشة المقيتة، التي ظلت ترافق كل من يدعوه بلقب المختار لفترة طويلة.

وقف نوار على صخرة كبيرة حيث تجمع حشد كبير من سُكان قرية السعادة، ثم قال بصوت عالي، مخاطبًا الحشد المستفسر عن هوية الشخص الغريب الذي يتوشح السواد:

"يا سكان قرية السعادة أنا نوار لقد أتيت من أرض الظلام، لأنقذ الجميع منها إنها مكان لا تعرفونه، ولكنه موجود، مكان بشع لا يريد أي منكم الذهاب إليه، فيه يقبع السواد، الكره، الألم، التعاسة، والأهم من ذلك الخلود في الظلام الأبدي.

ظلام دامس مُخيف، إن كنتم لا تريدون الذهاب إليها عليكم أن تتبعوا كلام من أتى منها وعرف أسرارها وهو أنا، نوار مرتكب الخطيئة الكبرى لقد استطعت بصعوبة بالغة الخروج منها لأحذركم منها"

كان نوار يعرف ذلك منذ أمد طويل، أن هناك بعد الموت مكان جميل يذهب له الصالحون والخيرون، ومكان بشع يذهب إليه العاصون والأشرار، كان ذلك هو صميم العلم الذي تلقاهُ من أباه قبل أن يُقتل.

لكن القصة التي اختلقها الآن كانت الخطوة الأولى لخلط الأمور.

أثار ذلك الخطاب خوف أهل القرية الذين قل يقينهم منذ زيارة العطار، فبزغ هذا السؤال في عقول الجميع:

"أيعقل أن ما هو يقين وما كان يقنيًا ألا يكون يقينًا!!؟"

تلك بذرة الشك الأولى التي زرعها العطار بأكاذيبه البيضاء كما كان يعتقد، والتي سهلت الطريق لنوار كثيرًا.

سؤالان سألهما أكثر المتشككين في القرية لنوار وهو المختار سام، وقد أفزعته فكرة أن يكون للألوان تفسير آخر حقًا:

"أين هي أرض الظلام التي أتيت منها!!؟ وما الذي يثبت وجودها؟ أيها الرجل المسكين" ابتسم نوار ابتسامة خبيثة، لقد رمى الطعم وهناك من علق فيه كما يحدث دائمًا.

****

(٢)

عندما غادر العطار قرية السعادة برفقة ناهد، كان كل ما يُريده هو إثبات وجودها لجميع سكان المعمورة، أراد أن ينطق بكل تلك الكلمات التي ظلت تغلي في صدره لمدة طويلة.

"ها هي قرية السعادة أيها الأوغاد و الأوباش"

كان الشرط الثالث الذي يقضي بمرافقة ناهد للعطار يصب في مصلحة العطار، فلم يكن هناك إثبات لوجود قرية السعادة...أفضل من أن يرافقه أحد أفرادها.

فكان ناهد بملابسه الملونة والمرآة التي لم تعد تفارق يده، وجسده الضخم، ومظهره الجميل، وعيناه الثاقبتان يُمثل دليلًا مقنعًا لا يُمكن إنكاره لوجود قرية السعادة.

ناهد الذي وضع ذلك الشرط، لم يكن يكترث فيما يجول في خاطر العطار...كل ما كان يشدو إليه هو شهوة التجوال في أرجاء المعمورة، التي كانت بالنسبة لهُ كقرية السعادة للعطار.

كان يتصور المعمورة، وهو يرحل من القرية مكان مصنوع من المرايا، التي أصبحت تعكس وجوده بل تثبت وجوده الذي بات مرتبطًا بوجودها.

لم يعد هوس وجود الصخرة يخطر بباله مُنذ فتتها العطار في تلك الليلة، أصبح لناهد هوس جديد هو المرايا، فلم يفارق تلك المرآة مُنذ أن أعطاها له العطار ولو للحظة حتى وهو نائم.

كان دومًا ينظر لنفسه فيها، ثم يبتسم ابتسامة غريبة كأنما ينظر لشخص آخر، أصبح ذلك الأمر مربكًا حتى للعطار نفسه، فلم يستطع نزع المرآة منه ولا إقناعه بتركها طوال الطريق إلى مدائن المعمورة، رغم الصداقة القوية التي جمعت بينهما وتقديس ناهد له.

عندما أصبح العطار قريبًا من أول سوق يمر به كلما عاد من جولاته الطويلة، فطن إلى أن الناس سيودون معرفة مكان قرية السعادة، وإن لم يدلهم على مكانها لن يكترث أحد لما يقوله...كان هذا مؤكدًا، أرقه هذا الأمر عدة ليالي حتى وجد الفكرة التي ستحل هذه المشكلة، كانت فكرة تجارية لكنها ستسهم في جعل الناس يصدقون وجود قرية السعادة.

استخلصها العطار من حكمة تقول:

"لن يصدق أحد وجود الشيء إلا إذا شعروا أن الحصول عليه شبه مستحيل، وليس مستحيلًا فعلًا"

هكذا راح يمشي في كل سوق معلنًا بثقة:

"أنه قد وجد مكان قرية السعادة وأن ناهد هو أحد سكان القرية، وأنه لن يدل أحدًا على مكانها إلا إذا أعطاه مائة مليون قطعة ذهبية، جزاءً للتعب والجهد الذي استنفذه في البحث عنها طوال عمره"

راح الناس يروون قصة العطار عمران، الذي وجد قرية السعادة، ولن يُطلع أحد عن مكان وجودها إلا بمليون قطعة ذهبية.

لم يكن العطار ليدل الناس على مكان قرية السعادة، فهو يعلم أن ذلك سيؤدي حتمًا إلى دمارها، لم يكن ليفرط بحلمه حتى بالمليون قطعة ذهبية...

كانت خطته تقتضي بالإعلان عن أنه أثبت أن قرية السعادة موجودة، وأنه لم يفنِ عمره هباءً...بكل اعتزاز وفخر ممكن أمام من سخروا منه، في كل أرجاء المعمورة، ثم سيعود إلى قرية السعادة ليقضي فيها بقية عمره، أما المليون قطعة ذهبية ذلك المبلغ الكبير، لم يكن أحد ليستطيع دفعه حتى الحاكم نفسه.

لكنه أوقع نفسه في الفخ الذي نصبه، عندما اضطر لأن يبيع حلمه، الذي لا يقدر بثمن، لنوار عالم علماء المملكة، الذي أتى إليه ووضع المليون قطعة الذهبية أمامه، وقال له أنه إذا كان يكذب فسيقطع رأسه أمام الناس في اليوم التالي، لم يكن هناك مخرج هذه المرة...

دل العطار عالم علماء المملكة نوار بمكان قرية السعادة على ألا يعلم أحد آخر بها وكان حازمًا في هذا الشرط، وافق نوار في الأخير وتمت الصفقة بوجود ناهد ومرآته.

"صفقة الرجل الذي باع حلمه"

****

(٣)

استقر نوار وسط القرية في بيت بسيط، بني خصيصًا له، لونه أسود، كان بناء بيت لنوار في القرية هو شرط نوار للإجابة عن أسئلة سام...وليدل الجميع على الطريقة التي سيستطيعون فيها تجنب الوصول إلى أرض الظلام المزعومة.

مجرد بناء البيت بذلك اللون الأسود شوه تناسق بيوت القرية مع الطبيعة، كانت تلك الخطوة الأولى لتشويه علاقة الإنسان نفسه مع الطبيعة، لتتحول من علاقة حب وتبادل للعطاء إلى علاقة استغلال واستنفاذ وتخريب وبمسوغ شرعي.

"دائمًا ما كان الشر يتستر خلف زي الخير أو لنقل أن الشيطان صار يلبس رداء الملائكة، فأصبح ملاكًا" حدث ذلك منذ وطأت قدم نوار أرض قرية السعادة.

عندما حقق أهل قرية السعادة شرط نوار الذي أصبح الآن المنقذ والمخلص من شؤم أرض الظلام، رغم أنه لم يثبت وجودها إلى الآن، ولكن إلقاء ذلك اللقب على نفسه، كان كافيًا لأهل القرية بسذاجتهم الطيبة لتصديقه "فالعنوان يُمكن أن يكون جذابًا للبعض دون إلقاء نظرة على المحتوى"

تلك هي الحكم التي بات يُلقيها المجنون الذي ظل يطوف في قرية السعادة لمائة عام، وقد ذهب بريق الأمل والشك والحلم من عينيه...ناصحًا لأهلها بحكم لم يفهم معظمهم ما تعنيه.

كان ذلك الشخص هو نفسه العطار، الذي لم يستطع تحمل ما جلبه من شؤم إلى أرض أحلامه، ففقد عقله، وأصبح الشبح الذي يمشي بين أطلال قرية السعادة حتى بعد موته، وظلت تلك الحكم تتردد دون أن يُفهم معناها، وظل صداها يغدوا ذهابًا وإيابًا.

(فلتحذروا الظلام، وغيوم الشؤم، فلتحذروا الكاهن الذي يرتدي السواد)

اجتمع نفس ممثلي العوائل والمختار الذين اجتمعوا عند العطار، للإجابة عن أسئلة المختار التي أصبحت أسئلة جميع أهل القرية:

أين هي أرض الظلام التي أتى نوار منها؟ وما الذي يثبت وجودها؟

بالنسبة للسؤال الأول، كان نوار قد حضّر إجابته منذ التقى بالعطار.

"أرض الظلام تقبع بعد نهر الخلود مجاورة لأرض السعادة"

أما بالنسبة لإثبات وجودها فقد استخدم نوار حيلهُ وذكاءه لإثبات ذلك، دعى الجميع إلى تغطية كل الفجوات، التي يُمكن أن يدخل النور من خلالها إلى بيته المطلي باللون الأسود من الداخل والخارج...نفذ أهل القرية ما طلبه نوار. عندما أصبحت الغرفة تغوص في الظلام الدامس، دعى الجميع للدخول إليها لمعرفة أن الظلام موجود، دخل المختار وممثلي العوائل إلى الغرفة التي كانت تغرق في الظلام الدامس، والتي زاد من ظلامها الطلاء الأسود الذي طليت به جدران الغرفة.

ارتعد المختار وممثلي العوائل الأربع خوفًا، فلم يروا الظلام بشكله المخيف هذا الذي عرضه لهم نوار من قبل...كان نوار يقف فوق سطح البيت داعيًا الجميع للدخول.

وحين انتهى العرض قال بصوت جلي:

(يا أهل القرية الطيبين، لقد رأيتم أن الظلام موجود، فكيف لا يكون هناك أرضًا للظلام، فكما أن النور موجود فإن الظلام موجود...وكما أن هناك أرضًا للسعادة التي هي أرض النور، فإن هناك أرضًا للتعاسة التي هي أرض الظلام)

كانت حجة نوار مقنعة، لأنها كانت أساسًا صحيحة، فتلك هي الحكمة العميقة التي خلق الكون على أساسها، حكمة الشيء وعكسه أو الشيء وضده، الحرارة مقابل البرد، السعادة مقابل البؤس، الفرحة مقابل الحزن، الأمل مقابل اليأس، وأخيرًا وليس آخرًا النور مقابل الظلام...وهكذا

تلك حكمة أساسية استقاها نوار من أبيه وعرفها حق المعرفة، فكانت هي أساس الحيل التي يستخدمها لخداع الناس واقتيادهم إلى البؤس بعصيهم.

إنها المعرفة مقابل عدم المعرفة دائمًا ما تنتصر كانت مكتملة أو ناقصة، شريرة أو طيبة، صحيحة أو خاطئة.

"إذا كان العارف يواجه قومًا غير عارفين، هناك الصفة لا تعني شيئًا مقابل الموصوف"

****

(٤)

كان المختار سام يبحث دائمًا عن الإجابة، وليس عن الإجابة الصحيحة...بات الآن يؤمن بازدواجية الإجابات منذ أن اقتنع بما يقوله نوار أو (بحكمة الشيء ومقابله)...

فهناك إجابة خاطئة وإجابة صحيحة، ذلك هو المفتاح الذي استخدمه نوار لتغيير كل شيء، فعندما أثبت نوار وجود أرض الظلام، أصبح المختار سام يلازمه ليستقي منه إجابات الأسئلة التي دومًا ما كان يطرحها، فقد أصبح نوار بنظره الآن القديس المنقذ والمخلص، مُنذ أثبت أن الظلام موجود، كما أن النور موجود.

وأول الأسئلة التي طرحها، كانت عن حلمه المتكرر وتفسير الألوان التي تظهر

"ما هو التفسير الصحيح لألوان حلمه، النهر الأحمر المختلط بصبغة اللون البني؟"

كانت إجابة نوار كما يلي:

"اللون الأحمر يعني لون الدم، واللون البني يعني لون التربة، وهذا هو التفسير الصحيح على الأغلب"

لم يكن سام يفكر بأن ما يقوله نوار صحيح أم خاطئ أو لنقل لم يكن يجرؤ على التفكير، فكل ما كان يهمه هو أن يثبت أن ما كان يقينًا أو ما خلق هكذا...ليس يقينًا ولم يخلق هكذا.

فكان يقول لأهالي القرية "كان ذلك الذي نعتقده خاطئًا فقد قال نوار – وهنا يصمت الجميع– أن الصحيح هكذا"

طفح الكيل ببعض من كانوا في القرية، خصوصًا الأفراد القدامى من عائلة الأشاعر والهوازن، وظلوا يصرون على الحكمة التي تقول:

"أن ما خلق هكذا لا بد أنه خلق هكذا، وسيظل هكذا"

بدأ الانقسام بين أفراد العوائل هنا، انقسم الجميع إلى قسمين: قسم ظل متمسكًا بما كان، وقسم بدأ يوقن بأن ما كان ليس صحيحًا، وأن ما يقوله نوار هو الصحيح.

كانت الأمور تهرول لصالح خطة نوار كما خطط لها، بل وبشكل أبسط مما يتوقع، كان نوار يعلم أن ما كان وما يكون الآن أساسًا غير صحيح أو جدال في شيء عقيم، ليس منه فائدة سوى تفريق الجموع حول إجابات تافهة كل منها قد يكون غير صحيح...كمسألة (من أتى أولًا)

فالسؤال نفسه يمكن أن يكون له إجابة أو إجابتين، ويمكن أن يكون له حتى عشر إجابات، لا يعرف الصحيح منها إلا من أمسك عصا العميان وهو نوار نفسه، ويمكن أن يكون السؤال المطروح ليس له أهمية تُذكر أو تؤثر؟

هي لعبة الإلهاء لا أكثر ولا أقل، التي تؤتي ثمارها دومًا.

كان كل ذلك مجرد البداية لتحويل القرية السعيدة إلى تعيسة في خطة نوار، والبداية كانت دومًا الأهم بالنسبة لنوار، وقد ساغها على مدى سنين دراسته وسعيه خلف المعرفة بهذه الجملة.

"لا تغير ما يؤمن الناس به...لكن شوه يقينهم بأنه صحيح"

(٥)

أصبح نوران هو المتحكم بالتشكيك في الأفكار والمعتقدات، هو من يقسمها إلى خيرة و شريرة، ويقسم الناس إلى أخيار وأشرار من خلال ازدواجية الإجابات، التي كان يحرص كل الحرص أن تبتعد عن الجوهر...

كانت كلتا الإجابتين صحيحة أم خاطئة ذلك لا يهم، فالإجابات كثيرة، لكن لن يعرف الصحيح منها إلا من أمسك زمام العصى، عصى العميان.

ما دام سينقسم أهل القرية إلى فريقين، هناك مسألة من المسائل التي طرحها نوران والتي بعثت الاختلاف الشديد.

فقد وضع كأسًا ملئه بالماء ثم أضاف له مادة سوداء، وسأل الجميع ما الذي سينتج من هذا الخليط؟

لم يكن أهل القرية يعرفون الشاي من قبل، فكان معظم الرد أن بما أن الماء بلا لون ولون تلك المادة سوداء، فإن المزيج سيصبح أسود.

ضحك نوار ضحكة مجلجلة، وقال أن الكل لا يعرفون الحقيقة، وأنه وحده المستأثر بها...عندها وضع الشاي في الماء، وعندما كان اللون الناتج أحمر، ذُهل الجميع من النتيجة، وأصبح كل ما قاله وكل ما سيقوله نوار هو الحقيقة دون جدال...

وكانت تلك هي الفرصة للمختار ومن معه وقد كانوا قلة، ليكونوا هم حصرًا من يملكون الحقيقة، فأصبحوا فيما بعد الأغلبية، وهنا حزم نوار حقيبته وحيله وسحره ورحل ليستجم لفترة.

فقد انتهى دوره الآن، وبدأ دور عصي أهل القرية والزمن، ليتخمروا مع بعضهم منتجين الخلطة التي تسكر كل الشعوب، الخلطة التي تسمى (عدم اليقين) فيتبعها (الفرقة، والانقسام، والتشتت، والحروب، والجهل، والمرض، والموت) وكل ما يطمس السعادة أو (كل شيء)، كما كانت تنعت في قرية السعادة.

****

(٦)

هناك جاءت الحيلة الثالثة لنوار، جعل الشيء المتوفر له قيمة...وبالتالي جعلهُ نادرًا، فإن كان الشيء متوفرًا للجميع، فلن يتهافت عليه الجميع، ولن تكون له قيمة مادية.

فاستخدم الخدعة التي أوجدت الذهب، وجعلتهُ ميزانًا مقابل السعادة أو كل شيء، خدعة تكررت مررًا وتكررًا، لجعل الناس بؤساء، في كل الدهور والأزمان، فمن كان سيحتاج للذهب في القرية إذا كان لديه كل ما يريد من دونه...الأكل الوافر الذي يكفي الجميع، الحب، العائلة، الجمال، الماء، الأحلام والسعادة، كان كل ذلك بلا مقابل في قرية السعادة، هناك استخدم نوار الحيلة التي هدمت معنى السعادة بالفعل...فلم تعد قيمة السعادة معنوية بل مادية.

المادة (الذهب) تؤدي حتمًا إلى الطمع والجشع والحسد.

لقد طرح نوار هذه الفكرة أن ما سيؤدي إلى الخلود فعلًا هما شيئان:

"جمع الأحجار الكريمة، والذهب...فإن كان لديك ما يكفي من الذهب ستحصل بواسطته على الخلود"

وإن كانت تلك الفكرة وهمية، فإن من قالها هو(نوار) المنقذ والمخلص والعارف، لم يكن الذهب موجودًا في القرية في الأساس، كان من يملك الذهب هو نوار وحده.

عرض نوار هذا العرض:

"من سيأتي بقطعتين من الزمرد، سيحصل على قطعة من الذهب

ومن سيأتي بقطعة من الزبرجد، سيحصل على قطعة من الذهب
ومن سيأتي بخمس قطع من العقيق، سيحصل على قطعة من الذهب"
راح الأغلبية وعلى رأسهم المختار يبحثون عن قطع المجوهرات التي كانت موجودة في أراضي القرية بالفعل، دون أن يطالبوا بأي إثبات هذه المرة، فلم يعد بعد خدعة الشاي شك بأن ما يقوله نوار غير صحيح...
لم تكن الأحجار الكريمة متوافرة بكثرة بالقرية فهي أحجار نادرة.
"لقد نجح نوار في إثارة الجشع بين أهالي القرية، بجعل ما كان نادرًا وليس له قيمة أو أهمية للعيش أو السعادة له قيمة وأهمية سعيًا وراء وهم الخلود"
راحت الأغلبية تبحث عن الأحجار الكريمة للحصول على الذهب، الذي سيؤدي بهم إلى الخلود والسعادة، وهنا نشأت الصراعات والحروب بين عوائل القرية الأربعة.
"فراح النواهد يقولون أنهم أول من وطأت أقدامهم القرية، فكل ما فيها من حقهم وحدهم، بينما رفضت بقية العوائل، فنشأت الحرب الأولى على أرض القرية والتي نزفت فيها الدماء"
وبالتالي:
تحقق تفسير نوار لنبؤة حلم المختار، فزاد يقين الجميع أن ما قاله وما يقوله صحيح.
لم تظفر أي عائلة بالنصر في تلك الحرب، جمعت كل عائلة ما تستطيع من الأحجار، وكان النصيب الأكبر (للأشاعر)

بادلت كل عائلة ما ظفرت به من الأحجار الكريمة بذهب نوار، وأصبح الجميع يملك الذهب، لكن على أي أساس كانوا سيوزعونه فيما بينهم، وهنا نشأت الصراعات داخل كل عائلة وبين أسرها...نشأ الكره والحقد والحسد بين أفراد كل عائلة، وظل يمتد ويتفاقم مع مرور الزمن.

لقد أصبح للذهب النادر قيمة وأصبح الجميع يود الحصول عليه، وقيمة سعادة كل فرد بكمية ما يملكهُ من ذهب، وأصبحت الأشياء التي كانت متوفرة للجميع دون مقابل نادرة.

لأنه لا تكون إلا لمن يملك الذهب النادر، وُجد الفقراء والأغنياء في القرية، وتكون ما بات يُعرف بالطبقية.

فالفقراء متلهفون لما يملكه الأغنياء، والأغنياء يزداد جشعهم مع تقدير الفقراء لهم، ولكونهم يملكون ما لا يملكه الآخرون، ونشأت بعد فترة العبودية والاستعباد، وأصبحت فكرة الخلود مقترنة بالمتعة التي ترافقها متعة توهم الخلود.

****

(٧)

كان يجب أن يوجد للقرية حامي وقائد، فكيف سيصنع ذلك؟ سأل نوار نفسه وهو يرى ضاحكًا بسخرية

سهولة استعباد الناس بالذهب بل وجعلهم يتقاتلون، ويسفكون دماء بعضهم.

"الخوف هو من سيصنع قائدًا، ويمكن أن يصنع آلهة أيضًا"

قال نوار مجيبًا السؤال الذي يعرف إجابته، منتشيًا بانتصاره الذي طمس سعادة القرية، أو القرية التي كانت يومًا مثالًا خالصًا للسعادة، بحيله ودهاءه.

كانت الفوضى قد عمت القرية، وصار هناك من ينهب ويقتل ويحرق كل ما هو سعيد، سعيًا وراء الذهب، الذي أصبح آنذاك معيارًا للسعادة.

عمت القرية فوضى كبيرة، كانت تمس الأغنياء بالدرجة الأولى.

فبرأي الأغنياء "أن الفقراء لن يكفوا عن حسدهم، وعن جشعهم ليمتلكوا ما يملكونه، ما امتلكوه بجهدهم أو جهد آبائهم أو أجدادهم"

فصار الأغنياء يخافون الفقراء، الذين أصبحوا بعد ذلك غوغاء ثم ....عامة، ثم عندما أصبحوا الأكثرية مع مرور الزمن، أُطلق عليهم اسم الرعاع أو الرعية أو الشعب...

كان لا بد من السيطرة على كل ذلك، كان نوار حاضرًا في الاجتماع الذي عقده السادة والأغنياء والأقوياء لحل هذه المشكلة التي باتت تؤرق مضجعهم.

كان حاضرًا وغائبًا، موجودًا وليس موجودًا، كما أصبح وسيصبح، هناك قال نوار بصوت صارخ غاضب:

((لا بد من نظام من قوة تمنع الغوغاء من الاستمرار فيما يفعلون))

اتفق الجميع في النهاية على تعيين حاكم للقرية، يحكم ويفصل بين أهل القرية، وتعيين أفراد يفرضون ما تحدث عنه نوار، النظام الذي يجب أن يسود "وليكونوا من الفقراء أنفسهم" اقترح نوار مضيفًا.

فتم تعيين شوسع الهوزني، وقد كان أفقر الأغنياء في القرية، والأقرب إلى الفقراء، فجند شوسع ما يربو عن ألف جندي من الفقراء، قرر أن تُجمع نفقات قوتهم من أهل القرية، ويساند الأغنياء بالنصيب الأكبر في ذلك، تحسنًا منهم لحماية كل أهل القرية.

وأعلن شوسع نفسه الحاكم الأول على الملأ، مع تصفيق حار من جميع أهل القرية -كانت تلك أول مرة يُخترع فيها التصفيق، وتسمع أصداءه في أرجاء القرية تعبيرًا عن الرضا أو الإجماع على شيء.

كان نوار قد خطط لكل شيء، فليس هناك هدف يُحقق دون تدرج، وتلك حكمة استقاها من أبيه أيضًا، ومن تجاربه العديدة التي خاضها مُنذ أن قرر الانتقام من البشر.

فرِح أهل القرية بالأمن، فالأمن والأمان هما أهم شيء لكي تستطيع العيش، ولو ستدفع ثلث محصولك لمن سيوفره لك، ولا أن يذهب المحصول كله أدراج الرياح بسبب الفوضى، وكان أكثر المؤيدين لذلك القرار هم الطبقة المتوسطة التي تستطيع توفير قوتها اليومِي.

أي الأغلبية التي رفضت نوار من قبل، ثم أصبحت أقلية وعادت اليوم لتكون أغلبية، فهم أكثر المتضررين من التخريب والاعتداء والقتل.

كان ذلك هو الأنسب للجميع، فحتى الفقراء أصبح عدد لا بأس به منهم من الجنود.

أعطاهم ذلك القدرة على إسكات الصوت المُنهك للفقراء المتبقين الذين رضخوا للواقع المذل...أما بالنسبة لهؤلاء الذين حاولوا المقاومة، فقد أسكتت أنفاسهم مُنذ زمن.

كانت إشاعة الخوف بين الناس أكثر الطرق الفعالة، التي تمكن نوار من خلالها على السيطرة على الجموع.

"خوف قطعان الماشية من الذئاب يجعل كلًا منها لا ينظر لأبعد من أن يكون ناجيًا، ممتنًا لكونه تمكن من أن يخيف الذئاب، أو لكونه أقوى من أن يكون فريسة تستطيع الذئاب أكلها"

بذلك المنطق، عاش الجميع شبه مستقرين لفترة طويلة من الزمن، فالأغنياء أمنوا أن يظلوا أغنياء، والمتوسطين رضوا بالقليل ممتنين.

أما الفقراء الذين لم يكن لهم جنود، فقد كانوا يموتون جوعًا في صمت، ودون أن يُسمح لهم حتى بافتعال الضجيج، الذي تحدثه الأرواح البشرية عند احتضارها لعدم إزعاج الأغنياء.

كان يجب أن يكون موتهم هادئًا وصامتًا، كان ذلك قانونًا أعلنهُ شوسع آمرًا الجنود بتنفيذه، أن يموت من حُكم عليهم بالموت...بهدوء.

في نظام كهذا لم ولن يكون هناك (كل شيء) أو سعادة، عوضًا عن أن نوار هو من وضعه، فكيف يُمكن لمن هو أساس التعاسة في القرية، أن يصنع نظامًا يكون البشر فيه سعداء، إنه تناقض لا يقبله العقل؟؟! خصوصًا إن كان المعني هو نوار.

لكن هذا الوضع حتمًا لم ولن يدوم إلى الأبد، كان لا بد من أن يأتي يوم يضجر فيه الناس من الظُلم والظالمين، أن يأتي من لا يقبل منطق هذا النظام غير العادل.

هناك عندما يدرك نوار ذلك، سيضع نوار دائرته المعذبة التي صممها بشيء من الإبداع، ليجعل التعاسة في القرية دائمة يُحرك عجلتها أهل القرية أنفسهم، لن يستطيع أن ينكر ذلك الإبداع أحد عند معرفته.

****

(٨)

عندما كان نوار ينفذ حيله واحدة بعد الأخرى، وينسج خيوط الشر بتفنن وإبداع لا مثيل لهما...موهمًا الجميع بحيلته الكبرى، حيله أنه ليس موجودًا ولم يكن موجودًا، وأنه موجود وكان موجودًا.

واضعًا جميع أهل القرية في حالة عدم اليقين والشك الأبديين، التي تجعلهم يميلون لتكذيب وجوده تارة، ولاستخدام حجة وجوده تارة أخرى للقضاء على خصومهم بنسبهم إليه في ذلك الوقت، عندما استتب الحكم لشوسع، واطمئن نوار سعيدًا بقدرة هذا النظام في جعل القرية تعيسة. ظهر في القرية من يعلم يقينًا بوجوده في القرية، وبأنه السبب في تعاستها، كان من ذلك النوع من الرجال الذي يهابهم نوار كثيرًا، لأنه كان يملك المعرفة التي يعرفها نوار نفسه.

"أن السعادة لا يمكن أن تكون مكتملة على المعمورة دون الخضوع لمن يملك السعادة"

ذلك كان أكثر ما يخيف نوار أن يعرف الجميع السر الذي يعرفه هو حقًا، كان ذلك الرجل هو خالد إنه من نسل عائلة الأرامد، الذين كانوا دومًا من الأقلية.

كان معظم الأرامد يشعرون بكذب نوار منذ أن خطى أولى خطواته إلى القرية، كانوا دومًا ما يتبعون حدسهم الذي أورثته لهم الصحاري التي عاشوا فيها لمدة طويلة من قبل...

كان خالد يقف على رابية منزله الذي هو منزل أبيه...لقد تشتت المنازل منذ زمن طويل وتشتت العوائل معها...

فلم تعد القرية هي نفسها التي كانت عليها، عندما كانت سعيدة، تقسمت الأربع منازل إلى مئات المنازل المترامية في أرض القرية، منها ما كان للأغنياء، ومنها ما كان للفقراء، وأغلبها كان للمتوسطين.

كان خالد ينظر إلى قعر وادي القرية الذي أصبح أشبه ببحيرة من الدماء، كان ذلك هو المكان الذي يعدم فيه الفقراء الذين ليس لهم جند بهدوء وصمت كما أمر شوسع، حيث كان لا بد أن تكون صرخات الألم مكتومة، وبكاء المظلومين نحيبًا.

كان خالد يشعر بغضب وغيظ شديدين، وهو يرى الظلم الذي يحصل في قريته، لم يكن يدري كيف يغيره!!؟

لكنه أيضًا لم يستطع السكوت، متمنيًا أن المستقبل المشرق سيأتي لا محالة.

كما يفعل معظم أهل القرية المتوسطين الذين يكافحون ليروا يومًا جديدًا، لا تكون فيه أسماءهم مدرجة على لائحة الفقراء الذين سيتم إعدامهم...

تلك الأماني بالمستقبل المشرق، لم تكن بالنسبة لخالد إلا نوعًا من اللامبالاة وإراحة الضمير، فلم يكن لعاقل أن يصدق تصديقًا كاملًا أن المستقبل المشرق آتٍ، دون أن يحرك أحد ساكنًا ليغير الحاضر...

كما لا يمكن لطريق أن يُشق دون أن يحمل أحد مطرقة أو فأسًا ليبدأ في شقه، كذلك طريق العدالة والسعادة، كانت الدماء التي ستسفك في

تمهيد هذا الطريق أطهر وأقل من الدماء التي ستسفك في السكوت والركون إلى الأماني.

توصل خالد إلى تلك القناعة بينما هو يشاهد بحيرة دماء الفقراء، الذين يُقتلون من قبل الجنود يزداد حجمها من يوم إلى آخر...لكن كيف لهُ أن يقاتل عدوًا لا يراه لكنه يرى أثره فقط؟ كيف يُمكن أن يهزم نوار الذي استطاع أن يُقنع الجميع أن ما يجري في القرية عادل؟

في تأمله الطويل أقسم أن يقاتل آثاره إلى أن يصل إليه، كان ذلك يتطلب كثيرًا من الشجاعة، أن تواجه خصمًا لا تراه، لكن خالدًا كان يملكها...ماذا عن البقية؟ انطلق ذلك السؤال بشكل تلقائي في ذهن خالد.

"سيدركون أن ما أقوله صحيح، لقد فاض القدر...لم يعد هناك ما يُكبل معظم الناس سوى الخوف، سأفعل كل ما بوسعي لإقناعهم بأن شوسع رجل ظالم، وأن هذا النظام الذي وضعه شوسع يجب أن يدمر"

في ذروة غضبه نسي خالد أن نوار هو من وضع ذلك النظام وليس شوسع، كان ذلك..الخطأ الذي بألف.

هرولت الأحداث ككرة ثلج لتتكون نواة ما يُعرف بأول ثورة قامت في القرية، الثورة التي ستفزع نوار فزعًا شديدًا، وستوقظه من غفوة الأحلام السعيدة، على كابوس لم يكن يتوقعه.

****

(٩)

قامت الثورة غير المتوقعة على شوسع وعُزل وقُتل، وتم رميه في بحيرة الدم التي أوجدها من دماء الفقراء، الذين قتلهم على مدى سنين حكمه الطويلة.

كان ذلك مفاجئًا ومفجعًا لنوار الذي شاهد بعينيه أن حيله يمكن أن تفشل، وأن كل ما بناه يمكن أن يدمر بلحظة، ظل يعيش في هذا الخوف كثيرًا، الخوف من الحق الذي مثله خالد...

لتعود القرية إلى ما كانت عليه سعيدة كما كانت في فترة وجيزة، فقد أعاد خالد في فترة قصيرة عندما استتب له الحُكم، العدل والمساواة إلى القرية، وفرض على الأغنياء إعطاء الفقراء، وأمسك بزمام القوة وسخرها للعدل وللإحسان وللحب.

لم يكن الزمن سيرجع للوراء، ولم تكن قرية السعادة ستعود كما كانت في أذهان البعض، بعض الأغلبية الذين كان كثيرًا منهم يساند شوسع يومًا من الأيام في قمع الفقراء.

أدرك خالد ذلك، كان حكيمًا كفاية ليفهم أن عقارب الساعة لا يُمكن أن تعود إلى الوراء، وأن ما في الخيال عن ماضي القرية السعيدة لا يمكن أن يكون واقعًا بكل تفاصيله، كما تفترضه أذهان الكثيرين.

أي أن البيوت المتفرقة لا يمكن أن تعود أربعة بيوت، وأن ملابس الألوان لا يمكن أن يلبسها الناس مجددًا، فلكل دهر تفاصيله، وذلك ليس ما يمكن أن يجعل القرية سعيدة مجددًا، وإنما ما يمكن استرجاعه

هي المعاني العميقة وتشكيلها لتناسب تفاصيل الواقع، كان خالد بتلك العقلية قادرًا على مجاراة نوار، بل والتغلب عليه طيلة مدة حكمه.

كان الناس سعداء وفهموا أن معنى السعادة ليس بالذهب وإنما بالحب، لكن كان لعهد خالد نهاية، وأتى بعده ابنه، استمر الوضع مشابهًا لكنه اختلف قليلًا، فأتى حفيده ثم ابن حفيده، وكان الاختلاف في المعاني العميقة التي أرساها يزداد مع كل حفيد يُمسك بزمام الحكم ويعتلي العرش.

إلى أن وصل الحكم إلى حفيده العاشر، شعر(نوار) الذي كان موجودًا وغير موجود طيلة تلك السنين بخيبة أمل كبيرة، شعر في هذه الفترة بمرارة الفشل وألم السقوط، سقوط المغرور الذي كان يعتقد أنه المتحكم بكل شيء وأنه الأذكى، ليرتطم بقعر الحقيقة المرة المعذبة، حقيقة إمكانية زوال نظامه الذي أهدر فيه الكثير لإتعاس الناس في لحظة استيقاظ واحدة.

لكنه تعلم ولمم جراحه وعاد أقوى وأذكى وأكثر حقدًا، ذلك كان دأبه دائمًا كان يتعلم، بينما أهل القرية ينسون ويتناسون حقيقة السعادة، فيسرقها منهم مجددًا، لكن بقوة وبقسوة أكثر في كل مرة، بنظام محكم وأقوى وأكثر تعقيدًا.

في غمرة الفشل الذريع تنبع الأفكار الأكثر إبداعًا، هناك نبعت فكرة الدائرة المحكمة والمغلقة المعذبة، نظام التعاسة الجديد الذي سيسود، ويخيم بظلام بؤسه لعقود، لدرجة ينسى فيها أن السعادة شيء حقيقي له معنى.

(١٠)

الملك الأخير الذي كان سيحكم قرية السعادة من سلالة خالد كان (قرميز)، الحفيد العاشر الذي ورث العرش من أبيه، وهو لا يزال حديث السن...

الغريب أن (قرميز) هذا، كان يكره النساء، ويشتهيهن بنفس الوقت، كانت تلك فكرة خبيثة وضعها نوار في رأسه مُنذ أن كان صغيرًا بعد أن قتل أبوه أمه، التي كان يُحبها قرميز كثيرًا بتهمة الخيانة، وتلك التهمة على الأرجح لم يكن لها أساس من الصحة، بل كانت شكوك زرعها نوار نفسه في عقل هوزن والد قرميز...

أوصلته في النهاية إلى هذه الفكرة، قتلُها سيكون أهون من مجرد وجود احتمال أن زوجته قامت بالتفكير في خيانته أو خانته فعلًا، كان عارًا لا يستطيع تحمله، لذلك قرر بعد عذاب طويل في غمرة شكوكه أنه يجب أن يقتلها، ليتخلص من هذا العبء الذي لم يعد يستطيع تحمله.

أدت تلك الحادثة، التي حدثت وقرميز لا يزال طفلًا في الثامنة من عمره، إلى كرهه وبغضه لكل النساء، لأنهن كلهن خائنات، ولا يحملن الوفاء بتاتًا ولا يعرفن العواطف والمشاعر.

فكان لا بد منذ أن تولى العرش أن يرمي رأس امرأة من نافذة قصره، بعد أن يأخذ منها وفاءها القصير له.

فزع الناس منه فزعًا شديدًا، رغم أنه كان عادلًا، فيما عدا ذلك من شئون الناس أكثر من أبيه...وخصوصًا مع التجار، الذين صار لهم منصب وكيان وثروات وعبيد، أخمد التجار غضب الشعب، الذي يرى رؤوس الفتيات تتجمع أمام القصر أكوامًا فوق أكوام مع مرور الزمن...

حاول وزراء الملك إقناعه بالعدول عما يفعله لكنهم لم يستطيعوا، فقد صارت تلك عادة متأصله في نفسه، تشُبع غريزته الانتقامية، ظلت رؤوس الفتيات الجميلات تتجمع أمام القصر إلى أن صارت كالجبل.

كان هذا بعد مرور خمس سنوات من تولي قرميز لزمام الملك، وهناك ظهر بطل جديد، (إفريز) ذلك الرجل الذي حطته الأقدار في مسار لم يكن ليتوقعه له، أكثر العرافين مهارة في كل أرجاء المعمورة، حتى عراف الملك نفسه (بيرقدار)، ذلك العراف الذي كان يزوره الملك باستمرار لمعرفة ما تخبئه له الأيام.

غضب صانع الفخار الوديع (إفريز) غضبًا شديدًا، عندما تصادف أن إحدى ضحايا الملك الكثيرة من الفتيات التي تُطلق رؤوسهن من نافذة القصر، كانت الفتاة التي أحبها حبًا جمًا منذ صغره وأراد أن يتزوجها...لكن حظهُ التعيس جعلها فتاة من الفتيات التعيسات اللاتي يدخلن غرفة الملك، فطار رأسها من النافذة في اليوم التالي، والذي تلقفه (أفريز) باكيًا، وهو يتسلق جبل الرؤوس المتعفنة للفتيات التعيسات، كان منظره وهو يعود برأسها قاطعًا الطرقات الطويلة، التي تصل في نهاية المطاف إلى مجموعة من البيوت الصغيرة التي يسكنها فقراء القرية

حيث يقبع بيته، يثير الشفقة والمرارة لكل أهل القرية، حتى الأغنياء منهم.

فقد كان ينتحب بحرارة وحسرة، كأنما رأس الفتاة المقطوع الذي يمسكه بيديه سيعود للحياة مرة أخرى كصدًا لنحيبه وآهات حسرته...لكن الرأس تعفن وبهتت ملامحها كبقية الرؤوس بمرور الأيام، غضب أفريز غضبًا شديدًا، وبدأ يُحضر للثورة، التي ستقطع رأس الملك الأخير من سلالة خالد، لتبدأ دورة نوار المعذبة التي أقسم أنه سيزيدها تعذيبًا، ليصبح أهل القرية تعساءً للأبد.

****

(١١)

بينما كان الذهب نادرًا كندرة الزهور والفواكه الرطبة، التي لم تعد رطبة كما كانت في السابق بل متيبسة ويصعب مضغها...كان هناك رجل عاش في فترة حكم قرميز، الذي ما فتيء يطلق رؤوس الفتيات كل يوم من نافذة قصره بهوس أصبح يبدو جنونيًا بمرور الوقت...جعلت الأقدار هذا الرجل الذي لم يكن لوجوده أهمية، أهمية ستجعله السبب الرئيسي في قيام الثورة على قرمير، في قصة لا تخلو من الغرابة.

كان هذا الرجل هو نهروان يعود نسبه إلى عائلة الأشاعر، عاش نهروان في تلك الفترة في فقر مدقع، مثله مثل بقية أهل القرية في فترة حكم قرميز...

زادت في فترة حكم قرميز الهوة التي بين فقراء القرية وأغنياءها اتساعًا وعمقًا، فأصبح هناك الكثير من الأغنياء ومعظمهم كان من التجار وحاشية الملك، والكثير من الفقراء الذين كانوا من عامة الشعب ومن الفلاحين، والقليل من الطبقة المتوسطة التي كان معظمها من موظفي الدولة، التي أصبحت هشة ومتزعزعة.

كان (نهروان) يعيش في بيت صغير في طرف القرية هو وزوجته ولم ينجب أيًا من الأولاد ولم يكن معه أرض ليزرعها، لذلك كان يعمل مع أصحاب الأرض بأجر بخس لا يكفيه قوت يومه هو وزوجته، وفي يوم من الأيام عاد إلى البيت وهو منهك وحزين...لا لشيء محدد حدث في ذلك اليوم، لكن بسبب سخطه الذي تراكم لسنين من فقره وعوزه وقلة

حيلته، أثناء عودته للبيت رأى حرباءً على أحد الأشجار تجلس في مكانها منتظرة...ظل يتأملها بفضول عارم لمدة دقيقة استمرت إلى دقيقتين مندهشًا من سكونها وتبلدها وشعر لوهلة أنه يرغب أن يعيش مثلها...هم بالمغادرة لكن شيئًا استوقفه، فقد رأى أحد الجنادب يقترب من الحرباء، غير آبهٍ لوجودها...عندها أخرجت الحرباء لسانها بسرعة لتلتقط الجندب وتدخلهُ إلى فمها وتمضغه، بكل تمهل ويسر، كأنما هي كانت تعلم أن ذلك الجندب سوف يأتي لا محالة.

قارن نهروان بدهشة وضعه بوضع الحرباء، قارن قلقه بهدوءها، وانفعاله بعدم مبالاتها، وتعبه براحتها...وعادت له تلك الرغبة التي شعر بها مُنذ قليل، أن يعيش مثل تلك الحرباء...فقرر ببساطة أن يصبح حرباءً...دون أن يناقش مع نفسه حتى معقولية تلك الفكرة.

حينها أقسم أنه لن يعمل مجددًا وسيظل في البيت إلى أن يأتي إليه رزقه من الطعام كما أتى لتلك الحرباء، وأعلن ذلك لزوجته شارحًا لها تفاصيل ما رآه، منهيًا القصة الذي ظل يرويها مطولًا بالقرار الذي اتخذه:

"سأفعل كما تفعل تلك الحرباء منتظرًا أن يأتي رزقي إليّ"

كانت تلك الكلمات الذي أخرجها منطلقة بيقين مطلق، ودون خوف أو تفكير بما كانت زوجته تقوله...أو تفعله لتثنيه عن قراره ذاك:

"كالموت من الجوع، والعطش ثم الصراخ والزعيق بكون الرزق لا يأتي بمجرد انتظاره، ثم نعتته بأنه رجل عاجز، وأخيرًا بسبه وازدراءه، وإلقاء اللعنات على تلك الحرباء اللعينة المشؤمة"

أجاد نهروان تقليد الحرباء بهدوءها وتبلدها، ولم يكن يفكر بأي شيء حتى أنه معظم الأحيان لم يكن يستمع لزوجته، متذكرًا مشهد الحرباء محاولًا تقليد سكونها وهدوءها وتبلدها، موقنًا أشد اليقين مثلها، أن الجندب سيأتي لا محالة إلى فمه وليس عليه إلا انتظاره.

مر اليوم الأول ولم يتغير شيء واليوم الثاني إلى اليوم السابع وكل الأشياء كانت على ما هي عليه.

حاولت زوجته إثناءه عن فكرة الحرباء المشؤمة بشتى السبل باللين ثم بالزعيق ثم بالشتم ثم باللين وهكذا كل يوم إلى أن يئست منه، وبدأت تبكي بحرقة من الجوع ومن حظها المشؤم الذي جعلها تتزوج هذا الرجل.

كان هناك مؤنة بالبيت تكفي لثلاثة أيام عبارة عن قطعة خبز لكل يوم، نفذت تلك المؤنة ونفذ صبر الزوجة المسكينة، ولم ينفذ يقين واقتناع نهروان، وفي اليوم السابع كانت الزوجة تقترب من الهذيان والجنون من شدة الجوع و التفكير، لدرجة أن يأسها وحالتها جعلاها تقتنع أن كلام زوجها عن الحرباة يمكن أن يكون صحيحًا بلا تفسير واضح.

في اليوم الثامن تغير حال نهروان بشكل غريب، كان يمتلك حمارًا شائبًا اشتراه قديمًا لنقل المياه إلى البيت، أتى جاره الذي يسكن على بعد عدة بيوت، ليشتري ذلك الحمار منه، ليضمه إلى حميره الكثيرة، التي يستخدمها لنقل بضائعه إلى السوق كالمعتاد، وأعطى قيمته قطعة نقدية من الذهب كان ذلك مبلغًا كبيرًا يقدم مقابل حمار قوي وفي عز شبابه ونضوجه، فما بالك بحمار نهروان العجوز، فرحت زوجة نهروان بتلك

الصفقة أشد الفرح، فقد كان ذلك المبلغ سيكفيهم لمدة شهر إلى شهرين إذا كانا مقتصدين وبدأت تقتنع أن كلام زوجها عن الحرباء صحيح، فأكرمته في ذلك اليوم وأعدت له أشهى الطعام.

وللقصة وجه آخر يزيد من غرابتها...فقد كان ذلك التاجر الذي يتظاهر بأنه بسيط، هو من يعقد صفقات الملك مع التُجار بشكل سري، وقد جمع ثروة طائلة من فعل ذلك، دفنها في أحد كهوف القرية البعيدة والمنعزلة.

وقد قرر الرحيل بتلك الثروة في ذلك اليوم حينما أتى لشراء حمار نهروان العجوز، لكنه وجد أن هناك حمارًا ينقصه لنقل ثروته، ولم يكن يريد العودة إلى السوق مجددًا لشراء حمار آخر، كي لا يراه التجار الذين كان قد استغلهم أشد استغلال مقابل وعود لم يفي بها.

ولم يكن هناك إلا حمار نهروان العجوز فقرر شراءه فالفائض لم يكن إلا بضع قطع ذهبية...سيستطيع هذا الحمار العجوز حملها دون أدنى شك، فذهب واشترى حمار نهروان بذلك المبلغ الكبير، مقابل ما كان سيتركه من القطع النقدية إن لم يفعل ذلك.

فكان دفعه لذلك المبلغ ليس نابعًا عن كرم، إنما من تلك المقارنة التي تعود عليها، من ممارسة تجارته القذرة.

كان دفع القطعة الذهبية مقابل حمار نهروان العجوز تصرفًا عفويًا من شخص ذو عقل تجاري جشع.

****

(١٢)

في ليلة ذلك اليوم عندما كان نهروان وزجته يأكلان أشهى الطعام، سعيدين ومستبشرين بطريقة الحرباء في جني الرزق، سمع نهروان حماره ينهق كما كان يفعل في ليالي الجوع المشؤمة، فتفاجأ وغضب غضبًا شديدًا معتقدًا أن جاره التاجر الصغير قد عاد ليعيد الحمار الذي اشتراه منه في الصباح.

تغيرت ملامحه وبان الخوف على وجه زوجته أيضًا، فخرج مستعدًا للشجار مع جاره الذي ارتضى شراء الحمار في الصباح، وعاد ليعيده في الليل.

وجد نهروان حماره وحيدًا بجانب البيت، عندما اقترب منه وجده محملًا بكيسين من القماش....نظر إلى الكيسين فوجدهما ممتلئين بالقطع الذهبية.

ذُهل نهروان وارتبك أشد الارتباك، من أين أتى ذلك الذهب؟ وكيف عاد حماره العجوز المشؤم بكل تلك القطع الذهبية؟ تبادرت تلك الأسئلة لذهنه.

استطاع نهروان أن يتمالك نفسه، وحاول أن يستجمع شتات عقله، فقرر على مضض أن يُعيد الحمار بما فيه من ذهب، إلى جاره الذي اشتراه منه في الصباح، بعد أن سمع نهيق حمير جاره، آتيًا من الحظيرة التي أعدها جاره لحميره الكثيرة.

معتقدًا أن حماره استطاع الهروب من جاره وعاد إليه، متسائلًا عن مصدر ذلك الذهب، الذي على ظهر الحمار...لم يتردد في أخذ حفنة من الذهب وإخفاءها...مستندًا في ذلك على أن الذهب جاء إلى باب بيته، كالجندب الذي جاء إلى الحرباء الساكنة والهادئة، مع أنه شعر يقينًا أن الأمر مختلف كل الاختلاف هنا.

عندما عاد وجد حمير جاره خارج الحظيرة منتظرة أمام البيت، وكل واحد منها يحمل كيسين مملوئين بالذهب حتى التخمة، نظر إلى بيت جاره فوجده خاليًا لا يوجد فيه أحد.

عاد نهروان مذهولًا مسرعًا إلى بيته ونزع وزوجتهُ أكياس الذهب، وهي غير مستوعبة لما يحصل مكرره سؤال واحد، من أين أتى كل هذا؟

وكان صوتها يزداد خفوتًا كلما كان زوجها نهروان لا يجيب عن أسئلتها، حتى أصبحت تهمس بذلك السؤال همسًا، كأنما هي توجه السؤال لنفسها.

أعاد نهروان الحمير إلى حظيرة جاره وكأن شيئًا لم يحدث، مرت أيام تلو أيام ولم يدرِ أحد أين اختفى الجار صاحب الحمير، وعلم التجار أنه قد هرب بأموالهم، وأن وعوده الأخيرة كانت زائفة.

لم يستطع نهروان تصديق ما حصل في تلك الليلة لفترة طويلة، واضطر مع تغير حاله أن يكذب كذبة صدقها هو الآخر.

كذبة ظلت عالقة في أذهان أجيال متعاقبة لمدة قرون ولم تتغير إلى الآن وهي قدرته على تحويل العملات المعدنية إلى ذهب.

اقتنع الجميع بكلامه فلم يكن هناك سبب لعدم تصديقه، وعندما كان يُسئل عن الطريقة...كان يقول أنه:

"سر لا يستطيع إفشاءه، وأن من يريد أن يحول المعدن إلى ذهب، يجب أن يكتشف الطريقة بنفسه"

أدت تلك الفكرة بالكثيرين إلى المحاولة، لكن أحدًا لم يستطع اكتشاف الطريقة المزعومة إلى الآن، جنت عقول الكثيرين بسبب هوس اكتشاف الطريقة السرية، كان السعي لاكتشاف الطريقة وحدها هوسًا لا يُمكن إيقافه.

ومن المرجح أن تلك الفكرة كانت بإيعاز من نوار، الذي أصبح في ذلك الوقت، مختفيًا تمامًا...ولا يتم ذكره إلا على شكل أسطورة اخترعها القدماء...

****

(١٣)

كانت تلك قصة نهروان التي تبدو أنها قصة غير مهمة، منعطفًا سيغير مصير القرية لعدة قرون بل إلى الوقت الراهن.

كان أفريز قد عزم على الانتقام من ملك المملكة، بعد أن بهتت ملامح رأس الفتاة التي أحبها من قلبه...تحول حبه إلى كره وغل وحقد ليس لهُ حدود، ولا يمكن السيطرة عليه.

تجمع حوله بعض الأنصار من الفقراء، الذين سئموا الذل والحاجة والظلم الذي كان يقع عليهم، فتكونت مجموعة من المقاومين والرافضين لحكم قرميز...

كان تقلصها وتوسعها يتحكم به الخوف والأحداث، والحدث الفاصل الذي جعلها تتوسع هو نهروان وقصته عن تحويل المعادن إلى ذهب، والذي تبعه سخط التجار، الذين كانوا الركيزة الأساسية لحكم قرميز للبلاد رغم ظلمه وبشاعة أفعاله.

كانت فكرة أن الفقير يمكن أن يصبح غنيًا وقد وصم بالفقر منذ ولادته بطريقة أو بأخرى كافيه لإنعاش أحلام الفقراء البؤساء، وكشفت مدى الظلم الذي يتعرضون له.

كان نهروان قد دعم تلك الثورة الدموية، التي قامت بقيادة أفريز بكذبته الخرافية عن الذهب الذي جناه من تحويل المعادن إلى ذهب كما كان يعتقد بإخلاص.

فرغم أنه أصبح غنيًا لكنه كان الوحيد من الأغنياء الذي كان فقيرًا، فعرف ذل الفقر وبئسه وما يعانيه الفقراء، فقرر أن يدعم أفريز الذي أصبح الآن له اسم وهيبة، أصبح المنقذ والمخلص في عيون الشعب رغم أن هدفه كان شخصيًا منذ البداية لكنه وجد نفسه في خضم كل هذا مسؤولًا عن انتقامات الجميع.

قامت ثورة الشعب والتي راح ضحيتها الكثير من الناس الشجعان، الذين ارتضوا أن يقدموا روحهم مقابل تخليص أقرانهم من الظلم.

انتصر أفريز في الأخير بعد مقتل أضعاف عدد الفتيات اللاتي قتلهن قرميز، ورمى رؤوسهن من نافذة قصره، لكن ها هو يلاقي المصير نفسه وبطريقة أبشع.

كأنما الزمن يقول:

"لا بد لمن توهم القوة إن لم يدرك أن هناك من هو أقوى منه أنْ يُدهس بوهمه ذاك وبنفس الطريقة"

سُحل رأس قرميز الذي فصل بأيدي الثوار الغاضبين وأضافرهم عن جسده، في فرحة عارمة من جموع الثوار المنتصرين، الذين أصبحوا متعطشين للدماء...

فلم يُفصل رأس قرميز فقط، بل وكل من كان من حاشيته و خدمه حتى أولاده، وبعد حفلة الرؤوس والكراهية تلك التي أفرغ فيها الناس غضبهم...بعد كل هذا...ظهر سؤال جديد ماذا بعد؟

لم يفكر أحد بتفاصيل الإجابة من قبل، ولم يكونوا يريدون أن يفكروا، في الأخير تم تنصيب أفريز كحاكم للبلاد، الذي قاد الثورة ورفاقه الأوائل، لتولي الحكم...

وجد أفريز نفسه حاكمًا للقرية، وهو لا يدري ما معنى كلمة حاكم وما دور الحاكم؟ ولماذا يجب أن يكون هناك حاكم؟

لكنه جلس على الكرسي الأنيق للحكم، وشعر بمعنى السلطة وجمالها وزينتها، اكتشف أن وجود الحاكم ليس إلا إرضاءً لغريزة المحكومين المحبة للاستعباد، لم يكن (إفريز) يدرك معنى العدل والظلم، أو السعادة والتعاسة، لم يفكر في ذلك مطلقًا عند قيادته للثورة على قرميز...كل ما كان يوده هو الانتقام للفتاة التي يُحبها، وذلك حدود ما كان يرغب به...

لكن ها هي القرية تدين له بمعروف جعله مقدسًا، وأصبح كل ما يأمر به أو يقوله من المقدسات...

كان نوار موجودًا في خضم هذه الأحداث، بل يمكنني أن أجزم أنه من كان يحركها...نبوءة الدم والأرض تلك كانت موجودة ومستمرة وبالتالي لا بد أن نوار الذي تنبأ بها لا زال وجوده مستمرًا، وإن كان يبدو غائبًا لكن آثاره الخبيثة كانت موجودة.

بطبيعة الحال لم يكن نوار موجودًا في هذه الفترة في نظر الناس، لأنه لو كان موجودًا لشعر بوجوده الناس وهنا بدأ الجدل القائم على ما يُرى وعلى ما لا يُرى...ولماذا عليك أن تصدق ما ترى؟

سادت في فترة حكم أفريز طفرة كبيرة من الأسئلة والإجابات، لأن أفريز نفسه لم يكن إلا يطرح الأسئلة؟ ثم يجعل من حوله يبحثون عن الإجابة، فيختار الإجابة التي تروق له عن كل سؤال، وكان أحيانًا يختارها عشوائيًا باستمتاع من يلعب النرد.

لم يتغير حال الناس كثيرًا، بل كان كما السابق مع تغير طفيف، فالفقراء كانوا ولا يزالون هم الفقراء، رغم أنهم أكثر من ضحى من أجل الثورة، والتجار لا زالوا هم التجار، الأغنياء الذين يتلاعبون بقوت الناس بنفس الجشع السابق، والحاشية هم الحاشية الذين يسعون دائمًا لإرضاء حكامهم مع تغيير في الأسماء والأدوار

لم يكن أحد من الناس يهتم بذلك في وجود أفريز قائد الثورة والثوار العظيم والمبجل والمقدس...

فدائرة نوار تزداد تعقيدًا "إن الناس يرغبون في أن يتوهموا ويعيشوا في الأوهام، وتلك أسهل طريقة لاستعبادهم...أن تجد لهم وهم يشغلهم في كل فترة زمنية"

أدرك نوار ذلك جيدًا، واستخدم تلك الحيلة في كل مرة...

"إن أردت أن تتلاعب بالبشر اجعلهم يعيشون في وهم جديد إلى أن يملوا منه، حينها أنشأ لهم وهم آخر بذلك تستطيع أن تبعدهم عن الحقيقة"

تلك الحقيقة التي يدركها نوار نفسه ويخاف منها، وهي حقيقة السعادة...

****

(١٤)

زُمرد ذاك الفتى الذي شارك بالثورة بكل طموحاته، لم يجد نتائج ملموسة لها بعدما قامت على (قرميز).

كان زُمرد من أوائل من انضموا إلى الثورة مع إفريز، وقد كان ذكيًا جدًا وحكيمًا، مما جعل إفريز يجعل منه يده اليمنى في التخطيط لهذه الثورة...

كان هو من اقترح على (إفريز) طلب التمويل للثورة من نهروان، رغم أنه لم يصدق فكرته المزعومة عن تحويل المعادن إلى ذهب...لكنه أبدى تصديقهُ لها ليكسب نهروان إلى صفوف الثوار، وساهم في نشر الفكرة عندما رأى أنها تعطي زخمًا بين الناس لكي ينضموا إلى الثورة...

كان زُمرد بعكس الجميع يؤمن بوجوب التغيير ونصر المظلومين والعدالة بين الناس، وكان قد بنى تصورًا لما بعد الثورة في رأسه، تصورًا يشبه قرية السعادة إلى حد ما.

لم يكن يسعى إلى الانتقام كما كان أفريز ولا إلى مكاسب تجارية كما كان يتمنى التجار، ولا إلى المال والذهب والنساء، كما كانت مطامع معظم الثائرين من الشعب.

كان هدفه أن يوفر العدالة والسعادة لجميع أهل القرية وليس لنفسه فقط، أن يُوجد نظامًا عادلًا يتساوى فيه الجميع، لذلك كان أول من تقدم

صفوف القتال في خضم الثورة، قاتل بكل إخلاص من أجل المبدأ من أجل العدالة أو لنقل من أجل صورة العدالة التي بناها في ذهنه.

عندما انتصرت الثورة، وكانت الأفراح تعم المدينة لم يشعر بذلك الفرح الذي اعترى بقية زملائه الأوائل في الثورة.

لم يشعر إلا بفرحة ناقصة مؤقتة وهي فرحة انتصار العدالة، كانت لذيذة مسكرة في بدايتها لكنها انحسرت ببطء وتحولت إلى حزن صامت.

كان زُمرد يعلم مسبقًا أن العدالة أو السعادة لن تتحقق بقطع رأس قرميز وحاشيته فقط، كان يراهم مجرد عقبة أمام وجود قرية السعادة مجددًا، وأن عودة قرية السعادة لا يمكن أن يتحقق عند زوال تلك العقبة.

وعندما رأى أن عقبة أخرى بدأت بالظهور، وهي رفاقه بالثورة الذين لم يكونوا يؤمنون بالمبدأ الذي كان يؤمن به مُنذ البداية...عندما ولي أفريز لحكم البلاد، فأصبح الثائر المقدس والمعظم، أدرك زُمرد ذلك تمامًا، أن حلمه لن يتحقق إلا عندما يتخلص من هذه العقبة: أفريز وجميع رفاقه...في الثورة.

أدرك أن العدالة التي يتصورها لن تتحقق بشهوة انتقام أفريز ومطامع رفاقه الباقين، رغم أن أفريز أعطاه كل ما يمكن للمرء أن يتمناه....قصر وخدم ونساء وذهب ومنصب رفيع.

لكن ذلك لم يشوش عليه هدفه للحظة، أن تعود القرية كما كانت قرية السعادة، وكان يرى أن العدالة هي ما سوف يحقق ذلك، أن يتساوى الجميع ويعود حب الأرض بدلًا من حب الذهب...فيصبح الجميع سعداء يزرعون ويعملون ويأكلون ويملكون بمقادير متفاوتة الفوارق

بينها ليست كبيرة...فتذهب الأطماع والمعاناة والبؤس والألم والظلم من قرية السعادة لتعود مجددًا سعيدة.

ذلك كان تصوره وخطأه القاتل في نفس الوقت، فلا يمكن أن تتحقق العدالة التي يتصورها ويشدو إليها، إلا إذا تحققت في قلوب وعقول أهل القرية.

لكن أهل القرية لم يعودوا يعرفونها أصلًا، لقد أنساهم نوار والزمن مضمون الكلمة فأصبحت جوفاء هزيلة، كما أصبحت الثمار والزهور في ذلك الزمن.

فسلك السبيل الخطأ لتحقيق ما يتمناه و يتصوره...حاول أن يصارع أفريز على السلطة برفضه لمعظم قرارته علنًا، هناك تحقق شك أفريز بصديقه الذي كان يعلم مسبقًا أنه أذكى منه وأنه لن ينسَ عهد العدالة الذي قطعه على نفسه لزمرد ولجميع الثوار منذُ بداية الثورة، بداية طريق انتقامه من قرميز.

كان أفريز يحب زُمرد رغم أنه لم يكن يفهم معظم ما كان يرمي إليه بكلامه الغزير والمبهم عن العدالة...

فوعده أن يحقق له مسعاه قبل الثورة وبعدها عندما أصبح حاكمًا، لأنه الطريق الصحيح أو لأنه يبدو صحيحًا حين يقوله زُمرد...

لكنه الآن أصبح يملك السلطة والنفوذ والثروة ولم يكن على استعداد للتخلي عن كل ذلك من أجل أحلام زُمرد...

لقد أعطاه كل شيء وميزه عن البقية لينسيه ما كان قد وعده به، لكن زُمرد لم ينسَ، ولم تُثنه مفاتن الحُكم والسلطة عن العدالة التي كان يشدو إليها قلبه.

طفح بإفريز الكيل عندما أدرك أن زُمرد يحاول أن يقنع حاشيته الذين كانوا رفاقه في الثروة من قبل بالانقلاب عليه.

فقرر إفريز عزل زُمرد من منصبه...أثار عزل زُمرد من منصبه ضجة عارمة بين جموع الشعب...لأن من عُزل هو زُمرد...وزُمرد لم يكن شخصًا عاديًا كان الشخص الثاني في الثورة...بل كان رمز الثورة بعد أفريز...

جن جنون أفريز فقرر، أنه يجب أن يكون زمُرد غير موجود، لكي يظل هو الحاكم، فقرر نفيه إلى مكان بعيد كي ينساه الناس...لكن ذلك لم يُجدي نفعًا، ظلت ذكرى زُمرد بين الناس وفي أوساط الثوار، بل أن حب الناس لزُمرد بدأ يزداد...بزيادة خوف أفريز منه.

أدرك إفريز أن نفي زُمرد لن يُجدي نفعًا سيظل شبحه المخيف موجود، وستظل أفكاره موجوده وسيظل احتمال فقدانه للسلطة قائمًا، حتى لو كان ذلك الاحتمال موجود بعقله فقط.

انتهى به الأمر لأن يحكم بإعدام زُمرد بتهمة الخيانة والتمرد، وأن يعدم كل من يقف أو سيقف معه، بنفس الحُكم.

قُطع رأس زُمرد وتصوره للعدالة وقطعت بعدهُ رؤوس كثيرة، ليعود جبل قرميز من جديد لكن بشكل جديد خاليًا من جمال الفتيات الشابات ومبررًا بسبب، السبب الذي سيكون سبب كل الرؤوس التي

ستقطع بعد ذلك، فلم تعد تُقطع الرؤوس لسبب مجهول بل لسبب معلوم، شكل ذلك فرقًا كبيرًا لما قبل وما بعد الثورة.

****

(١٥)

بقيت كل الأشياء على حالها منذ موت زُمرد وحلمه في العدالة، بموته لم تمت العدالة، بل أشتد الظلم؛ لأن من أرادوا العدالة أو تصورها، كانت رؤوسهم تقطع الواحد بعد الآخر.

انتهى حكم أفريز الذي توهم الخلود بموته، وأتى بعده من انتهج نفس نهجه، فكلما كانت تقام ثورة كلما فشلت، لأن من يقوم بها لم يكن يقوم بها من أجل العدالة لكن من أجل السلطة والنفوذ والعرق، وأخيرًا الآراء والأفكار.

ففي حكم أفريز انفجرت طفرة الأسئلة والأجوبة، فكان الحكام يسألون ويحددون الأجوبة.

بدأ النزاع على أصل كل عائلة، ومن هي أحق في الحكم، وفي تفسير الحلم، ومتى أتت كل عائلة، وهل كانت قرية السعادة موجودة أو غير موجودة؟!

أم أن وجودها لا يمكن أن يكون موجودًا في الحياة نفسها!!؟

لم يعد نوار موجودًا لكن آثاره كانت موجودة في كل حدث جديد يحدث في القرية، في كل حرب تقوم، وكل اختلاف ينشأ، وكل دماء نزفت على مر السنين وامتزجت بجمال بهي في التربة، محققًا تفسيره لحلم جد الأشاعر.

مرت قرون وقامت وانتهت حروب وتغير الناس وملابسهم وأفكارهم ومعتقداتهم، كانت الحلقة التي وضعها نوار تؤتي ثمارها في تظليل أهل القرية عن السعادة...وكانت تزداد تعقيدًا بمرور الزمن، لم يحدث شيء يستحق الذكر في الخمسة قرون التي مرت.

إنه نفس الشيء أناس تتحارب من أجل الحكم وثورة تنجح وثورة تفشل، ثم في كل قرن يموت الجميع، وتظل الخطايا، لكن شلال السعادة لم ينطفئ، كان يزداد ضعفًا فقط، وكأن قول الفلسفة الذي انتشر في تلك الفترة حقيقة محضة، تلك الفلسفة التي تقول:

"بأن كل شيء يسير إلى الأسوأ إلى أن تتحقق نبؤة حلم الأشاعر باختلاط الدم بالتراب" رغم أن النبوءة نفسها كانت تتحقق فعلًا بين فترة وأخرى.

صار لنوار اتباع كُثر يعرفونه ويخدمونه بعلم أو بغير علم، وأناس قليلون لم ينسوا وجوده، لكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوه بين كل تلك الضبابية، فكانوا أحيانًا يؤدون ما يريده بقصد محاربته، فيصبحون كمن يرمي السهام بقصد إصابة هدفه فيصيب هدف عدوه، ويمضي فرحًا مخدوعًا ويعيش وهم النصر طويلًا، دون أن يدرك أن انتصاره مجرد وهم، وكم خدعت الأوهام من الأغبياء في تلك الفترة الطويلة.

حدث كل ذلك في خمسة قرون، ولو كان أحد أجداد العوائل عاش شاهدًا عليها، لما صدق أنها تحدث ولأنكر، أن تلك هي قريته التي عاش فيها، أشد الأنكار...ربما لم يكن ليصدق إلا إذا رأى تلك الصخرة المشروخة في طرف الجبل القديم الذي بنيت عليه القرية.

لكن في أشد الأوقات ظلامًا، عندما سئم الظلام من نفسه، ومن وجوده ومن غباء أهل القرية الذي طال وطال معه وجوده...تمخض شلال السعادة والعدالة الذي سده نوار بكل الطرق والحيل والمكائد والحروب، قطرة سيتبعها تدفق فيضان يعيد قرية السعادة إلى سعادتها، رجل سيفسد كل ما ظل يفعله بإخلاص بلحظة طيلة ذلك الزمن.

كأن ما كان يظن أنها أحجار صلدة تسد مجرى شلال السعادة، لم تكن إلا خيوط عنكبوت واهية تقطعت وحملتها الرياح.

إنه البطل الذي أحب ياسمين بإخلاص وتعلم من حبهُ لياسمين حب الوطن والعدالة، إنه الحب مجددًا تنمو إحدى بذوره، لتصنع شجرة قوية، رجل أُعتصر قلبهُ بشدة حتى أدرك الحقيقة.

****

(١٦)

الليل ونجومه هما اللذان لا زالا على ما هم عليه دون اختلاف، يُشاهدان القرية تتدهور إلى الأسوأ برثاء حزين يشبه الحزن الذي يشعر به بُرهان، أو هذا ما كان يظنه العاشق المحب الذي تحطم قلبه إلى أشلاء في صراع كان أغلب من يخوضه في هذا الزمن، لا بد أن يُهزم إن حالفه الحظ، أو يُحطم إلى أجزاءً إن لم يحالفه.

الصراع مع الحب، ومن أجل الحبيب، فلم يعد الحب منبعًا للسعادة، كما كان في عهد رعد وبراقش بل أصبح منبعًا للتعاسة، لأن من يشرب منه لم يعد يرتوي بل يزداد عطشًا.

خاض برهان معركته مع الحب بعصاه الخشبية وبقلبه الغض، فقطعه الآخر إلى أشلاء بسيفه الحديدي الذي لا يرحم.

أحب بُرهان ياسمين من كل قلبه حتى كاد أن يجن، أما تلك الفتاة لم تكن تكترث له، أو بالأحرى لم تكن تراه كان كبرغوث بالنسبة لها.

فقد كان دون المستوى، ولم يكن ليستطيع أن يتزوج منها أو يصل اليها، فقلبه كان طموحًا أكثر مما يجب، كما كان هو.

والقلب لا يفرق بين ما يجوز، وما لا يجوز، بين من يستحق ومن لا يستحق، بين من هو أعلى منزلة ليكون ملكه ومن هو أدنى، فهو يختار وهو من يفرض اختياره.

كان برهان ابنًا لعائلة أقرب لأن تكون فقيرة، رغم أنها تكسب ما يكفي من المال، فقد كانوا حطابين وبناءين، أي أنهم كانوا أصحاب مهنة، ومن كان صاحب مهنة أصبح يوصم بتهمة الفقر، لأنه صاحب مهنة.

لم يعد أصحاب المهن هم من يكسبون الحب والتقدير، كما كسبهما الأشاعر عند قدومهم إلى القرية، عندما كانت سعيدة، بل من كانوا ينتمون للعوائل القريبة من الحاكم، أو التجار الأغنياء الذين يملكون الذهب ويخدعون الناس، كانت المفاهيم قد تغيرت تمامًا عما هو مفروض أن يكون صحيحًا وما هو خاطئ.

كان بُرهان قد شرب من نهر الحب المحرم الذي يُسكر القلب لوهلة فيغدوا خيلًا ليس له سراج، عندما رآها لأول مرة، وهو ينقل مع أبيه الحطب إلى مخازنه، في حديقة قصر أبيها الذي كان زبونًا كأي زبون يشتري الحطب، تلك كانت أول مره يتجول بها مع أبيه لتوزيع الحطب، وذلك كان القصر الأول الذي يدخله من بين القصور الكثيرة التي يزودها أبوه بالحطب، قصر أحد وزراء الملك ومقربيه.

كانت ياسمين تجلس في الحديقة تحدق في الزهور التي لم تكن تزهر إلا ذابلة فاترة شاحبة، كانت تتسائل عن سبب شحوب هذه الورود، رغم أنها كانت تعتني بها جيدًا ما الخطأ، كانت تحدق إليها بنظرة حزينة متسائلة.

تلك النظرة الجميلة المتسائلة والحزينة لياسمين، كانت لتجعل حتى الطيور تقع في حبها، وقع بُرهان بحب الفتاة ذات النظرة الفاترة كما وقع الكثيرون.

إنها ياسمين التي سيتصارع من أجلها أبناء الملوك والوزراء، فكيف استطاع قلبه أن يكون طموحًا لهذه الدرجة؟

سؤال سيظل يكرره على قلبه مرارًا كلما أوجعه فقدانها، أصبح يراها كل أسبوع لمرة واحدة، عندما يحين موعد نقل الحطب من الغابة إلى القرية.

كان في كل مرة يراها جالسة في نفس المكان تُحدق في زهورها الذابلة والشاحبة بنظرة حزينة وعاجزة، كأنما هي تحاول أن توقظ تلك الزهور من سبات أبدي مبهم لا تفسير له.

لم تنتبه لوجود بُرهان ولو لمرة واحدة من المرات العديدة، التي يمر بها بالقرب منها ناقلًا الحطب إلى مخازنه ذهابًا وإيابًا.

إلى أن أتى اليوم الذي لم تكن موجودة فيه، مر أسبوع ثم أسبوع آخر لم يعد يرى ياسمين.

أراد بُرهان أن يسأل عن سبب غيابها، لكن ما علاقته بها ليسأل، ولماذا سيجاوب أحد عن سؤاله؟ فهو ليس إلا ذلك الحطاب الذي ينقل الحطب بصمت وهدوء.

يجري بُرهان في الأسبوع الثالث، فاقترب من المكان الذي كانت تجلس فيه ياسمين، متأملة أزهارها بتلك النظرة الحزينة والفاترة...التي كانت تشبه الورود في فتورها وحزنها العميقين، كأنما هي ترجوها لتكف عن حزنها وشحوبها بكل الوسائل، لكنها كانت ترفض بعناد أو أنها كانت تعجز.

عندما رأى بُرهان ورود ياسمين الفاترة والشاحبة أدرك بحسه العميق أنهُ إنما كان ينظر لانعكاس حزن تلك الزهور في عيون ياسمين، رغم إحساس بُرهان العميق الذي قاده لتلك الفكرة كان صائبًا فيها أو لم يكن.

فالقرار الذي تمخض تكلف منهُ الكثير، كما كلفهُ الكثير فيما بعد، فقد قرر البحث عن أجمل زهرة في القرية وإعطاءها لياسمين.

كان ذلك مشابهًا لما كان يحدث في القرية عندما كانت سعيدة، عندما يريد أحدهم الزواج من فتاة أحبها، رغم أن تلك العادة اندثرت مُنذ أن ظهر الذهب على يد نوار في القرية، فتغيرت إلى تقديم أجمل القطع الذهبية، ثم إلى أكبر عدد منها مع مرور الزمن.

لكن القدر ساق بُرهان لفعل نفس الشيء دون علم منه، كأنما تلك كانت الإشارة الأولى لعودة قرية السعادة كما كانت سعيدة، دون أن تدرك هي الأخرى ذلك.

لكن لم تكن نتيجة بحثه المضني والمتفاني للعثور على تلك الزهرة من بين كل زهور القرية، التي كانت كلها شاحبة فاترة ما عدا واحدة فقط ليجني له قلب ياسمين، الذي فعل لأجل الظفر بها ما يكاد أن يكون مستحيلًا في تلك الفترة، وهو إيجاد زهرة جميلة وسعيدة وغير شاحبة في القرية، التي لم تعد زهورها قادرة عن التعبير عن السعادة مُنذ زمن طويل.

****

(١٧)

بحث بُرهان عن الزهرة الجميلة في غابات القرية بفرح وسعادة العاشق، الذي أيقن أنه سيكسب قلب عشيقته.

كانت الزهور في الغابات رغم قلتها كلها شاحبة حزينة، تشبه زهور ياسمين، كان عبيرها يكاد لا يكون موجودًا، وألوانها المختلفة باهتة، كأنما هي رُسمت رسمًا على ورق يكره الألوان ويمقتها.

لم يفت ذلك من عزيمة بُرهان، فظل يبحث في الغابات، متوغلًا فيها لأيام عدة قاربت الشهر...كانت نفس الورود يتفاوت بهوتها وشحوبها وألونها بدرجات تكاد لا تُذكر، كان الأمر يشبه إلى درجة ما كان يفعلهُ العطار في البحث عن قرية السعادة الأحلام الخيالية التي تنسي الإنسان نفسه، كان تخيله لياسمين وابتسامتها ينسيه كل تعب أو جوع أو عطش.

لكن ما كان يختلف هي الدوافع، فدافع بُرهان كان الحب، والحب هو خط اليقين نفسه فاختفت في حالة بُرهان أرجوحة العطار المعذبة بين الأمل واليائس، لأن بُرهان كان متيقنًا من أنه سوف يجد تلك الوردة الحمراء.

في نهاية المطاف وجدها برُهان، تلك الوردة اليانعة الجميلة، كانت وحيدة في مدخل أحد الكهوف البعيدة، كان المكان والتوقيت غريبان، فالكهف كان هو نفسه كهف ناهد، والوقت هو عند غروب الشمس، كان منظرها المتلألأ بين أشعة الغروب يعبر عن الجمال الأخير المتواجد في القرية الذي انحسر بمرور الزمن الطويل.

كان قطف بُرهان لتلك الوردة، سيلقي عليه مسؤولية إعادة السعادة والجمال مرة أخرى دون أن يعلم ذلك، إنه الزمن الذي يوهمك أن أحداثه تتخبط بعشوائية ثم يباغتك بانتظامه الذي أدركه (ناهد) يومًا في قرية السعادة...وهو مشغول بوهم صخرته الوهمية، يمكن لذلك النظام أن يفاجئ حتى نوار نفسه بقوته وانتظامه.

****

(١٨)

إنها مجرد أحلام، أحلام مضحكة ذلك أكثر ما جعل بُرهان يتألم، زواجه من ياسمين، تلك الفكرة جعلت كل العائلة تضحك، كأنما هو ألقى نكتة ساخرة.

رغم أن تلك السخرية من حبه لياسمين جعلت الأمر أصعب عليه، تقديم تلك الوردة السعيدة وغير الشاحبة لياسمين، لكنها لم تثنه عن عزمة، ففي اليوم الثاني من عودته من غابات القرية، ذهب وحده إلى قصر الوزير، جاء في الوقت غير المحدد ومن غير أبيه، لكنه استطاع أن يقنع الحراس أن ذلك الحطب الذي جاء به معه، كان بطلب من الوزير نفسه وأن أباه كان مريضًا فاضطر للقدوم لوحده.

سُمح له بالدخول ومن حسن حظه أن ياسمين كانت هناك، تجلس وحدها، وضع بُرهان الحطب في المخزن، ثم ذهب إليها بثيابه المتسخة لينفذ ما عزم على أن يفعله، مبعدًا كل المخاوف التي كانت تراوده منذ أن وجد الوردة الجميلة.

عندما كان قريبًا منها حاملًا تلك الوردة الحمراء السعيدة، وقفت ياسمين من مكانها، مركزة نظرتها على الوردة الحمراء دون أن تلتفت إلى بُرهان.

الغريب في الأمر أن نظرتها إلى الوردة كانت أكثر حزنًا من نظراتها السابقة لزهور الحديقة، التي اعتاد بُرهان أن يراها، لم يكن ذلك ما

توقعه بُرهان الحالم العاشق، كانت عيناها تزداد حزنًا وحسرة كلما اقترب منها إلى أن تساقطت الدموع منها.

حث بُرهان خطاه مقتربًا من ياسمين، أراد أن يستفسر أن يعرف فقط...لماذا هي حزينة هكذا؟ ما الجرم الذي اقترفه؟

لكنه لم يلقَ جوابًا منها، بل إنها انهالت عليه بالضرب مُطلقة عليه ذلك اللقب الذي ظل صداه الموجع يتردد في قلبه دائمًا...لوقت طويل.

(أيها الحطاب اللعين....أيها الحطاب اللعين)

كانت ياسمين تضربه بقوة وبغضب والدموع تنهمر من عينيها، كأنما هي قرية السعادة التي فقدت آخر شيء يُسعدها أو يدل على أنها سعيدة، ها هي الآن تنفس عن غضبها بكل قوة ذلك ما شعر به بُرهان في تلك اللحظة...

انتهى كل شيء...أصبح بُرهان خارج القصر، يحمل أشلاء قلبهُ الذي تشظى دون أي سبب اعتقد أنه اقترفه، لكن ذلك ما كان يظنه لا ما يشعر به، كان يشعر أنه اقترف جرمًا كبيرًا، وإلا لما كانت ياسمين فعلت ما فعلته ذلك اليوم أراد أن يصلح ما اقترفه، لكن آلامه التي أحدثتها إهانة ياسمين له ولحبه لها ولرغبته بالزواج منها...للجهد الذي بذله من أجلها...كان لا بد لها من وقت كي تندمل...كي يخف صريرها.

كان يجب أن يتحمل إنهاءه لسعادة قرية السعادة، وكان هو من سيزيح تعاستها، لا لسبب واضح، بل لأن الأقدار اختارته هو ((الحطاب اللعين))...بُرهان

****

(١٩)

مرت عدة سنين كبر فيها برُهان، لم يعد يزور البيوت مع أبيه لتوزيع الحطب بعد تلك الحادثة، كان يظل وحيدًا في الغابة لأيام، يجمع الحطب ينام ويأكل ويشرب هناك...

بنى له كوخًا من الخشب هناك وآثر العزلة، مفكرًا بتلك الحادثة وبتلك الكلمة التي كانت تنعته به ياسمين (أيها الحطاب اللعين).

لقد أحبها حبًا خالصًا وبحث عن تلك الوردة لشهور لكي تفعل معهُ هذا؟!! لكي يسخروا منه جميعًا؟ ما الخطأ الذي ارتكبه؟ لا بد أنه أخطأ في شيء، كان يلوم نفسه طيلة تلك المدة.

لم يقابل ياسمين بعد تلك المرة، بل أنه لم يمر من جانب قصر الوزير مرة أخرى، لكنه أيضًا لم يستطع أن يكرهها لم تفارق نظرتها الحزينة مخيلته.

كانت أخبار القرية تصل إليه أولًا بأول من والده الذي كان يشكو تدهور الأوضاع في القرية، وأن العديد من الفقراء صاروا يموتون جوعًا دون أن يلتفت لهم أحد، منذ أن اعتلى (حرب) العرش، الوريث الذي أصبح شرعيًا لحكم البلاد، بعد أن خاض حربًا ضروس هو وإخوته السبعة على العرش.

كان الثالث بينهم لم يكتفِ بقتل أخويه الكبار بل قتل الصغار منهم أيضًا، وكأنهم مجرد عقبات يجب عليه أن يسحقها لينفرد بالحكم ولينفرد بياسمين الجميلة، التي استولى حبها على قلبه، ياسمين ذات

النظرة الفاترة وغير المبالية التي لا يظهر عليها أي حزن أو فرح، كأنما هي أفرغت كل ما يمكن أن يقال عنه شعور، عندما رأت الوردة الحمراء بيد ذلك (الحطاب اللعين).

كان هذا هو كل ما تذكرهُ عنه، كان كل ما أعطته هو الكره، وذلك اللقب الحطاب اللعين...اللذان كانا يجتمعان كلما تذكرته.

كانت ياسمين قد خطبت من شقيق (حرب) الأصغر قبل أن يعتلي العرش، وقد كان الوحيد الذي لم يكن له زوجة، أحبها بصدق وهي حاولت أن تبادله نفس الشعور حاولت لأنها لم تعد تشعر.

لكنها وجدت نفسها في النهاية مجبرة على الزواج من قاتل خَطيبها، تقبلت الأمر كأن خطيبها الأول لا يعنيها في شيء ولم يكن لهُ وجود.

كان بُرهان يدرك كل ذلك، وهو في الغابة يقطع الحطب بقوة، منفسًا عن غضبه ليس من ياسمين، لكن من كونه لم يستطع أن يعرف الخطأ الذي اقترفه؛ لأنه لا بد من أنه اقترف خطأ، لتسخط ياسمين عليه في ذلك اليوم، لم يشك لدقيقة أنه لم يقترف أي خطأ، وأن ياسمين هي من كانت مخطئة.

عندما أدرك بُرهان في تلك الليلة أن نجوم الليل هي وحدها التي لم تتغير منذ وجود قرية السعادة عرف السبب.

كان هو، هذه الكلمة البسيطة (التغيير) بما تحتويه من معاني تغير السعادة إلى تعاسة، والجمال إلى قبح، والحقيقة إلى باطل، والحب إلى كره، والطيبة إلى خبث، كان نوار يقبع وخيوطه التي ستتطاير تقبع بين هذا كله.

(٢٠)

استعادت الورود سعادتها كما أعاد بُرهان السعادة لقرية السعادة، ولنفسه وياسمين التي فرقتهم الورود وجمعتهم أيضًا، كما كان يَحدث في زمن السعادة قبل أن تطأ قدم العطار أرض القرية.

لقد مرت خمس سنين حتى أصبحت قيمة الحب في القرية أكبر من قيمة الذهب، بل أن الذهب لم يعد لهُ قيمة فلم يعد نادرًا...أصبح يملكه الجميع، سك بُرهان أول عملة تتداول في القرية، وضع عليها ختمه، وكانت لها قيمة أكثر من الذهب.

لأن من كان يتحكم بندرتها وتُوفرها هو بُرهان نفسه، عاد (كل شيء) إلى القرية، الغناء، الأخوة، الحب، الرقص، الجمال، الفن...والأهم من ذلك كله اليقين، عادت وسيلة تحقق الأحلام التي تتحقق بها الأحلام.

ذلك كان مهمًا لأهل القرية فلم تعد الأحلام مرتبطة بالذهب، بل بالأرض، والحب بالعمل الذي أصبح متوفرًا للجميع، فلم يعد الفرق كبيرًا، رغم أن الناس لا يمكن أن يتساووا في السعادة.

وهنا نشدد في السعادة وليس بالمال الذي يحقق السعادة.

عادت الألوان تنبض مرة أخرى متوهجة على جدران البيوت، وتزينت المدرجات بالأشجار الخضراء القرمزية التي استعادت نظارتها وسعادتها...فأثمرت الثمار اللذيذة ذات العصارة السكرية، التي كان مذاقها وحده ينعش كل ما يمت للسعادة بصلة في النفس، ولم تعد الزهور شاحبة حزينة وفاترة ليس لها رائحة...

لكنها بدأت تستعيد رونقها ببطء، كأنما هي مرآة تعكس ما في عيون الناس، حتى أن المرء أصبح يشك بحقيقة أن جمالها ينبع من ذاتها أم من العيون السعيدة لأهل القرية.

وعندما استعادت الورود نضارتها ورونقها نفثت أريج العطور، الذي كان يصبح أقوى كلما أصبح عطاء الحب بين أهل القرية عفويًا، لينسجم مع الهواء برائحة رقيقة عبقة مكونة خليط من أجمل العطور المختلفة، الروائح الطبيعية للزهور، التي شكلت مزيجًا خاصًا يبعث السعادة.

عادت الحياة كما كانت، وعاد (كل شيء) كما كان بنفس المعاني القديمة لقرية (كل شيء) ولكن بشكل مختلف.

أتمنى أن ذلك حدث فعلًا، أو أن هذه النهاية السعيدة، التي يتمناها كل البشر ومنهم قراء هذه الرواية، حدثت أو أنها على وشك الحدوث.

لكن لنتخيل ذلك فيمكن للخيال أن يصبح حقيقة، إن آمنا أن كل شيء يمكن أن يكون واقعًا، حتى إن بُني من خيال، فالكون بحد ذاته إذا أمعنا في وجوده فالممكن فيه ليس لهُ حدود، والمستحيل فيه يمكن أن يكون غير مستحيل، إذا أيقنا أنهُ ليس مستحيلًا.

ستبدو القصة للبعض غريبة ومعقدة، وهذا ما أخبرتكم به مُنذ البداية، ولتعرفوا أن القصة مستمرة ارجعوا إلى البداية، ثم أعيدوا قراءة الرواية، ستجدون أن معظم أحداثها تتكرر، فمن يصنع تلك الأحداث هو نوار نفسه.

ولذلك ستبدو الأحداث مختلفة في الظاهر لكنها متشابهة في المغزى.

انتهت ....